

كلمة العدد :

عيد الشهداء فرحة في الأرض والسماء

بقلم : محمد الرزقي

تعيش تونس هذه الأيام، فرحة الاحتفال بعيد الشهداء، لكن كيف يمكن أن يقترن الفرحة بمعاني الموت والفناء، فما جرت به عادة البشر أن يحزنوا ويداهمهم البكاء، كلما تذكروا عزيزا عليهم فارق الحياة .

ومن هنا يبدأ تفرد الشهداء، باعتبار أنهم ليسوا أمواتا بل أحياء، بشهادة الواقع والخير القادم من السماء، إذ يقول تعالى : "وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون". (آل عمران: 169) ، فأنى لشخص يكون في جوار الموت، ولا يتتهج لهذا اللقاء، وكيف لا نفرح لفرحهم بعدما حازوا كل هذا المناء، فيتحول الشهداء إلى أولياء مكرمين في الأرض والسماء، وجديرين بالترك والزيارة لقرهم من الله.

أما السبب الثاني الذي يدعونا للفرح، أن الفرحة هو دين معلق بعائق كل تونسي هؤلاء الشهداء، الذين منحونا حق الحياة، فيجب علينا إظهار البشر والفرحة في هذا اليوم، وفي كل أيام السنة، حتى لا يحسوا أن جهودهم ذهبت سدى، وأقل مظاهر الفرحة أن نزرعهم نجوما في السماء، ونحتفل بهم صباحا ومساء، فمشروع الشهادة يتضمن في عمقه منح السعادة القصوى للآخرين، والتي تصل حد الانتشاء.

وتونس في عهدها الجديد السعيد، استوعبت هذه المعاني، وحولت البلاد إلى بلد لا تنقطع أفراحه، ولا تنطفئ أنواره، لتزهو بلادنا بين البلدان، لكن تظل عينا تفحص الماضي وأخرى تراقب الحاضر أما الكيان فيسابق الزمان،

منقضا على المستقبل.

فتونس اليوم، ليست تونس الأمس، وليست تونس الغد، فهي تسير بسرعة الضوء، لذلك من يتحدث عن تونس الحاضر، هو يتحدث في حقيقة الأمر، عن صور من الماضي، لصعوبة إيقاف موكب الصور، وهذا يذكرنا بقوله تعالى : " فلا أقسم بمواقع النجوم " (الواقعة: 75) فعندما كنت فتيا، كنت أتساءل دوما، لماذا أقسم الله بمواقع النجوم، ولم يقسم بالنجوم نفسها رغم ضخامة حجمها، والجواب الذي حصلته بعد أن تقدمت بي السنون، أننا في حقيقة الأمر لما نرى النجوم في الليالي، فنحن نرى موقع النجم لا النجم ذاته، لأن النجم يكون قد غادر موقعه منذ آلاف السنين.

وهكذا قدر تونس أن تكون نجمة في السماء، يصعب مسكها أو قهرها، فهي في درها تسير، وعلى رجاها أمر التدبير.

لذلك فأهم عبرة تستخلصها من ذكرى الشهداء، هو التحلي بمعاني التضحية والصبر على البلاء، وأن نظهر الامتنان والإجلال لمن مهدوا لنا سبل الحياة، وأن نستمد من ماضيها ما يساعدنا على البقاء، في زمن العولة المتوحشة، التي لا ترحم الضعفاء، خاصة أن تونس تحتفي هذه الأيام بشهر التراث، فعلينا أن لا نكتفي بمعنى واحد للتراث، والمتعل في تشجيع المواطنين على شراء آنية فخرية، أو تزيين البيت بزرية قيروانية، أو زيارة المعالم الأثرية، وإنما الأمر أوسع من ذلك بكثير، وهو كيف ننقل نفسية الأجداد، وروح تربيهم للحياة، وهي أساس الوجود، لأن الوجود قائم في جوهره على مدى انتصاب الإرادة، والإرادة تتزود بطاقتها من منابع الهوية، والتمثلة أساسا في الثوابت الوطنية والدينية.

دمتم سادتي القراء سعداء، في ظلّ أرواح الشهداء

بدايات النحو العربي في البلاد التونسية

بقلم الباحث : الهادي بن بلقاسم

التمهيد:

لقد ارتبط التعليم بالمسجد ارتباطاً وثيقاً منذ القدم، وذلك لاقتراح الحث على الإيمان بالحث على التعليم. وعلى هذا الأساس اعتبر المسجد المكان الأفضل للتدريس. ونُظِّلنا مصادرنا التاريخية على معهدين مثلاً النواة الأساسية للحياة الثقافية عموماً، وللحركة الفكرية خصوصاً. ونعني بهما جامع عقبة بن نافع وجامع الزيتونة. ويقود الخوض في حيثيات هذين المعلمين الثقافيين إلى الحديث عن بعض الجوانب الحضارية الحافلة بتلك الفترة. ولئن ليس من هذا الحديث عن الجانب السياسي فإننا لن نغفل عنه — ولو بإيجاز — متى تبين أثره الفعال في توجيه الدراسة النحوية.

1- المؤسسات التعليمية ودورها في دفع الدراسة النحوية:

أ - جامع عقبة:

تم تأسيسه في منتصف القرن الأول للهجرة بعد فتح إفريقية وإنشاء القيروان. وهي "مدينة عظيمة، ليس بالغرب مدينة أجل منها" (1)، ولقد شهد هذا المسجد قبل آخر القرن الأول رواية الحديث والتفسير.

¹ باقرت الحموي : معجم البلدان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1980 ط3، ج10، ص

واستمرت دراسة العلوم الدينية وشاع التناظر بين المذاهب وإلقاء الدروس. وجدير بنا أن ننوه بالدور الريادي الذي تكفل به هذا المعلم في تجذير الدراسات اللغوية وإثراء البحث النحوي باعتباره علماً مساهماً في إثراء المعارف ومدخلاً أساسياً إلى مختلف علوم اللغة العربية. كما كان جامع عقبة مركزاً كبيراً للحياة الاجتماعية في البلاد فلمسجد الكبيرة "كانت دوراً لاجتماع الشعب ومحلاً للدراسة ومُلتقى العلماء والقصاص وملجأ الغرباء" (2).

ب - جامع الزيتونة :

خطّه القائد الأمويّ حسان بن النعمان حوالي سنة (80هـ/699م) تخطيطاً بسيطاً. ثم أعيد بناؤه وتجديده وزخرفته. ومثل جامع الزيتونة منارة فكرية شملت شتى العلوم وتمثلت منها الأجيال ما غدّى انتماءها العربي ومتمنّ وحدها اللغوية. ويرجع تداول التعليم بالزيتونة إلى أوائل القرن الثالث للهجرة. ولذلك يجوز لنا أن نعتبر أنّ هذا الجامع يعدّ من أعرق الجامعات التي حظيت بإشعاع كبير في العالم العربي.

ولقد زحرت القيروان مع مطلع القرن الثاني للهجرة بالسكان من مختلف الأمصار الإسلامية. وشهدت بيئتها الاجتماعية "أخلاقاً من قريش ومن سائر بطون العرب من مصر وربيعة وقحطان وبها أصناف من عجم البلاد البربر والروم وأشباه ذلك" (3). هذا وعاشت إفريقية

²- حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، مطبعة المنار: تونس 1965 ج

1، ص 111.

³- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، دار الثقافة بيروت ج 1/ص 169.

التعريب غداة اكتمال الفتح الإسلامي، وبفضله انتشر العلم في شتى المجالات. ونشأت أجيال الفقهاء وعلماء الشريعة الذين حافظوا على عروبة البلاد وإسلامها. وكانت دراسة النحو ضرورة لا مناص منها، باعتباره علماً مساعداً على الخوض في العلوم المقاصد، ونعني بها الحديث والفقه والتفسير. ويمثل علم النحو مجالاً رحباً عني به النحويون وخاضوا في مسأله وانكبوا على أركانه، دراسةً وبَحْثاً وشرحاً وتأليفاً.

والمستبَع لتاريخ الدّراسة النحويّة في البلاد التونسية، يتبّه إلى مرورها بأطوار مختلفة اختلافاً تحكّمت فيه العديد من الجوانب. ويجوز لنا أن نفصل بين هذه الحلقات فصلاً منهجياً يحدّد مسار النحو في تونس ويبرز مراحله منذ النشأة. ونعوّل لتحقيق غايتنا على ما جادت به علينا مصادر البحث من معلومات.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Skynet.be>

2- الأطوار التاريخيّة لعلم النحو:

أ- طور النشأة والتأسيس:

بعد أن تمكّن العرب من السيطرة على كامل البلاد الإفريقية، اتجهت عنايتهم إلى نشر العلوم العربيّة. وبداية من القرن الثاني المحجري لاح جلياً اهتمام أبناء القيروان وتونس بعلم النحو، فقصدوا الكوفة والبصرة، ثم دمشق وبغداد والفسطاط، واستفادوا من شتى العلوم العربيّة.

ولنا في فترة حكم آل المهلب وخاصّة مع يزيد بن حاتم، أصدق دليل على ثراء الدّراسات اللّغوية عموماً والبحث النحوي خصوصاً، إذ

تزامنت هذه الفترة مع وفود العديد من كبار أئمة اللغة والنحو على غرار يونس النحوي البصري⁽¹⁾ (90هـ/708م — 182هـ/798م) و قتيبة الجعفي الكوفي⁽²⁾ (؟ — ؟) وغيرهما من رجال الأدب والرواية والنحاة واللغويين. وليس من شك أن طلبه العلم قد استفادوا من غزير علمهم وواسع درايتهم. وبديهي أن تتوالف مجموعة من العوامل المؤثرة في دفع الحركة اللغوية وتركيز الدراسة النحوية. فإضافة إلى المحجرة نحو المشرق بحثاً عن العلم وطلباً للاستزادة منه، ووفود الكثير من العلماء وإقامتهم بالبلاد، نلمس بوضوح مساهمة الاستقرار السياسي من جهة واختلاف أصحاب المذاهب الدينية من جهة أخرى في الاطراد المستمر لحركة اللغة، إذ انتشرت حلقات التدريس والمناظرة والتشجيع على التأليف.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sa>

ب- طور الازدهار والتطور:

شهدت البلاد خصبا لغويا نجم عن وفود عالمين من علماء اللغة العربية، وهما يونس النحوي و قتيبة الجعفي. وكلاهما يمثل مدرسة متجذرة في علوم اللغة والنحو. فبفضلهما تدعّمت الدراسات اللغوية وتبلورت

¹ - يونس بن حبيب الضبي أبو عبد الرحمن، من أبناء البصرة وكبار أئمة اللغة والنحو المنسوبين إليها. وقد روى عنه سيويه. كما سمع منه الكسائي والفراء. وهما من مشاهير نحاة الكوفة. أخبار النحويين البصريين 33 انباه الرواة 74/4 طبقات النحويين واللغويين 50 وفيات الأعيان 7/244/

² - قتيبة بن مهران النحوي، من أعلام نحاة الكوفة. وتظهر صلته بالنحو من خلال لقب "النحوي" الذي اشتهر بين العلماء. وكان قد قدم إلى القروان في عهد الأمير يزيد بن حاتم. انباه الرواة 3/37 بغية الوعاة 265/2 طبقات النحويين واللغويين 149.

خصوصيات التفكير النحوي باعتباره مدخلا أساسيًا إلى دراسة العلوم الأصول. وهذا ما ساعد على تطوير دراسات علوم العربية. فلقد شهدت الدراسات اللغوية والنحوية توسعًا خلال هذه الفترة كما وكيفا. كما تمّ الاتجاه إلى شرح الأمّهات من كُتب اللغة واعتماد الأصول واتساع مجال الثقافة اللغوية. ولا شك أنّهما قد جلبا في رحلتهما مجموعة كُتب يحتاجانها للتدريس والقراءة والتأليف. ويُعدّ أبو الوليد المهرّي (ت 253هـ أو 255هـ/867م أو 869م) "شيخ أهل اللغة والعربية والنحو والرواية ورئيسهم وعميدهم والمقدّم في عهده وزمانه عليهم" (3).

وتواصلت العناية باللّغة وعلومها في عهد الأغالبة، حيث جلبوا نفائس الكتب من أطراف العالم العربي. كما أنشئت في عهدهم مكتبة بجامع عقبة "كانت عامرة بالمولّفات القيّمة، احتوت كتبًا جليّة ما بين مصاحف وتصانيف من أمّهات الفقه والحديث واللّغة والأدب" (4).

وفي سنة (263هـ/876م أو 877م) ابتنى الأمير إبراهيم الثاني مدينة رقادة، ونصب في إحدى عمائرها "بيت الحكمة" التي جلب إليها علماء أجلاء من بغداد ومصر، وفتح مكتبتها إلى القصد من جميع أنحاء البلاد.

³ السيوطي جلال الدّين: انباه الرواة، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ج2، ص209. بغية الوعاة ج2/ص114. الزبيدي أبو بكر: طبقات النحويين واللّغويين : معجم الأدباء 208/1.

⁴ حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، مطبعة المنار: تونس 1965 ج1، ص141.

فكانت مبعثاً جديداً لنشر الثقافة العلمية في إفريقيا العربية. وتروي لنا كتب التراجم والتاريخ مدى عناية الولاة بعلم النحو في إطار عنايتهم باللغة العربية. فشجّعوا على التأليف، ورصدوا الحوافز. وخصّصوا علماء اللغة والنحو بمرتلة مميّزة وكرم فائق. فنشطت حركة التأليف والتدوين. ومن أشهر الكتب المتداولة في مجال علم النحو نذكر كتاب سيبويه، إذ ورد في ترجمة أبي اليسر الشيباني (289هـ/901م أو 902م) أنه "كتب كتاب سيبويه كلّهُ بقلم واحد، وما زال يريه حتّى قصر، فأدخله في قلم آخر وكتب به حتّى فني بتمام الكتاب"⁽¹⁾.

وتوسّعت دائرة البحث اللغوي والدراسات النحوية إزاء هذا الثراء الفكري الممتدّ إلى فترة حكم الفاطميين (296هـ/909م - 365هـ/975م) الذين سعوا إلى خدمة اللغة العربية. فـ "أمروا/أولا بتعطيل تعليم أصول الشريعة على مذاهب الستّة، ثمّ متعوا إلقاء الدروس الدنيّة التي لها مساس بالعقائد عدا دروس اللغة العربية". ولقد شهد علم النحو في هذه المرحلة اهتماما كبيرا وعناية فائقة. ونستدلّ بما رواه أبو عبيد البكري، لتبيان مدى عناية الدولة العبديّة بعلماء النحو وتشجيعها الدائب لهم، حيث ذكر أنّ "عبيد الله الشيعي ردم من البحر مثل ذلك وأدخله المهديّة، فأئسع الموضوع وفيه ستّة عشر برجا... منها برج ابن الوزان النحوي".

¹ - حسن حسني عبد الوهاب: ورقّات عن الحضارة العربية وإفريقية، مطبعة المنار: تونس 1965 ج1، ص114، 107، 245.

ولما غادر الفاطميون إفريقية "حملوا معهم التراث الثقافي الأغلي والكب التي طالما ازدانت بها مكتبة مسجد عقبة ومكتبة بيت الحكمة الشهير"، إلا أن المكتبات الخاصة قد احتفظت بذخائرها وحافظت على تواصل السند العلمي.

وفي مرحلة لاحقة تعلقت همة بني زيري بإثراء المخزون الفكري وتدعيم الرصيد المعرفي بمكتبة الجامع الأعظم بالقروان. وشهدت الحياة الفكرية نشاطا منقطع النظير، إذ برزت نخبة متميزة من الأدباء واللغويين والنحاة، رفعت لواء الدراسات الأدبية واللغوية، وذاع صيتها في سائر الأقطار العربية. ويعدّ القزّاز⁽²⁾ من مشاهير علماء إفريقية في العصر الصنهاجي، حيث تتلمذ على يديه رجالُ فكرٍ وعلمٍ وأدبٍ أجلاء. وأتسمت الحركة اللغوية من نحو وصرف ومفردات بتنوع غزير. وعرفت تطورا ملحوظا على غرار ما كانت عليه الحال في كلٍّ من الكوفة والبصرة وبغداد ودمشق. وهذا ما حدا بأحمد أمين إلى اعتبار "فترة حكم الصنهاجين بمثابة العصر الذهبي لبلاد المغرب في ميادين المعرفة بشتّى أنواعها وفروعها"⁽³⁾. ولقد امتدّ هذا الإشعاع العلمي وطال مختلف المجالات المعرفية. وظهرت حركة فكرية لم ترَ إفريقية

² - القزّاز (345هـ/956م - 412هـ/1021م): محمّد بن جعفر أبو عبد الله التميمي النحوي القرواني. كان إماما علامة، قائما بشؤون العربية.

أبناء الرواة 84/3 بغية الوعاة 71/1 معجم الأدباء 105/18 وفيات الأعيان 384/4 ورفقات 174/1.

³ - أمين أحمد: ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي بيروت/لبنان، ط3، ج1، ص 304.

مثلها قبل ولا بعد. "وإذا علمت أن الأمراء والكبراء كانوا يقبلون على المعارف ويبدلون النفس والنفيس في اقتنائها ومعاوضة المنتسبين إليها، تيقنت ما فازت به إفريقية التونسية من النهضة العلمية العالمية" (4). وهكذا نتبين أن الفترة الممتدة على أربعة قرون - ابتداء من مدة الأمراء المهالبة، ثم الدولة الأغلبية، ثم العبيدية، وأخيرا الصنهاجية - تمثل العهد الخصب للقيروان، وبالتالي للبلاد التونسية، خصوصا إذا تمعنا في مسار البحث النحوي على آخر عهد الصنهاجيين، حيث شهدت الدراسة النحوية ركودا واضحا بسبب ما اعترى البلاد من اختلال الأمن واضطراب الأحوال.

ج- طور التراجع والركود:

عقبت مرحلة ازدهار علم النحو في البلاد التونسية مرحلة 'تراجع' وركود في مجال البحث النحوي. ولقد اجتمعت مجموعة من العوامل التي عجلت بتبديد مجهودات تواصلت أربعة قرون. ويظل العامل السياسي من أهم الأسباب المبددة للرصيد اللغوي والنحوي الذي مثل مفخرة للبلاد، ومصدرا لملت منه الأجيال ما يُغذي انتمائها العربي الإسلامي. ولاحت بوادر هذا الركود بداية من سنة 440هـ/1048م، تاريخ زحف بني هلال. إذ مثل هذا الزحف منعرجا حاسما في مسار الحياة الفكرية بالقيروان، حيث "انطلقت أيدي الهلاليين ومن انضم إليهم من بطانة السوء في أرجاء إفريقية، فعاتوا فيها فسادا وتخريبا ونهبا.

⁴ - حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس دار الجنوب للنشر: تونس، 2001، ص 80.

واستباحوا القيروان حتّى أصبحت أثرا بعد عين⁽¹⁾. وبديهيّ أن يتأثر المخزون الفكري الرّصيد المعرفي للبلاد بهذه الأحداث المضطربة. كما ساهمت هذه الأجواء المشحونة بالاضطراب في هجرة العديد من رجال العلم إلى بقية مراكز اللغة العربيّة. ومن العوامل المؤثرة في تردّي الأوضاع الدّاخليّة للبلاد وبالتالي في تراجع الحياة العلميّة نذكر زحفيّ النرمان، الأولى سنة 480هـ/1087م، والثانية سنة 536هـ/1140م. وهذا ما جعل إفريقية "كها مقسوما بين النرمان في السواحل والأعراب في الدّاخل"⁽²⁾. واستمرّ تأثر الحياة العلميّة بالوضع الدّاخلي المضطرب الذي شهده القطر التونسي في فترة حكم الدولة الموحّدية 554هـ/1159م — 626هـ/1228م، حيث تعدّدت الفتن والثورات الدّاخليّة على غرار ثورة بني الرّند⁽³⁾ سنة 575هـ/1179م، وثوري ابن إسحاق الميورقي⁽⁴⁾، الأولى سنة (586هـ/1190م) والثانية (602هـ/1206م).

-
- 1 - حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس دار الجنوب للنشر: تونس، 2001، ص82.
 - 2 - بنو الرند : دولة مستقلة انتصبت بالجرهد عند انقسام الدولة الصنهاجية. وكانت قاعدتها مدينة ققصة.
 - 3 - يحيى بن إسحاق : أحد أمراء دولة بني غانية المنتصبة في الجزائر في منتصف القرن الخامس للهجرة.
 - 4 - محمد بن علي : تولّى خلافة الدولة الموحّدية اثر وفاة والده يعقوب المنصور وتحميدا سنة 595هـ/1198م.

وطبيعي أن ينعكس هذا الاضطراب السياسي على سائر الحياة الفكرية عموماً والدراسات اللغوية خصوصاً. ولئن لا ننفي وجود بعض الجهود في بعض المجالات المعرفية فإننا نؤكد على قلتها وعلى محدودية رقعة البحث النحوي. إذ أن أغلب المصادر قد سكنت عنها، مركزة على الحالة المتردية التي أضحت عليها البلاد في تلك الفترة. ومن هذا المنطلق يجوز لنا الإقرار بالنقص الواضح في مجال علم النحو. وتبرز لنا النظرة الثاقبة لكاتب تراجم اللغويين والتحاة مدى تراجع البحث النحوي وتقلص إسهام التحاة التونسيين في مجال تخصصهم. فإذا استثنينا أبا محمد الغماري (554هـ/1159م — 624هـ/1226م)، فإن جلّ كتب التراجم قد خلت من التحاة التونسيين في فترة حكم الدولة الموحدية (554هـ/1159م — 626هـ/1228م). كما غابت عناوين تصانيفهم النحوية. وما يدعّم اعتقادنا في ركود علم النحو وتعطل البحث النحوي، هو أن الغماري قد غادر البلاد وتصدر بهجامع مصر لتدريس العربية. ولعلّ في ذلك تأكيد على انتفاء الظروف والعوامل المساهمة في ثراء الدراسات النحوية في تلك الفترة. وهذا ما حدا ببعض اللغويين والتحاة للتنقل إلى مراكز العلم في سائر الأقطار العربية الأخرى. ولقد حتم مثل هذا الوضع المتردي تدخل الأمير محمد الملقب بالناصر بن علي⁽⁴⁾ سنة (602هـ/1206م) لإخماد الثورات وفرض الأمن. وكان له ما أراد حيث رتب الشؤون الداخلية للبلاد ثم استخلف

عليها وزيره أبا محمد عبد الواحد جدّ الأمراء الحفصيين سنة 603هـ / 1207م. ويمثّل هذا التاريخ بداية حكم الدولة الحفصية التي حملت معها بوادر نخضة علميّة شاملة ووجها جديدا لعلم النحو يتّسم بالثراء والتنوّع ويختلف شكلا ومضمونا عن طبيعة الدّراسات النحويّة في سائر المراحل التي تطرّقنا إليها...

الخاتمة :

ويجوز لنا في خاتمة هذه المحاولة لدراسة رحلة علم النحو بالبلاد التونسيّة واقتفاء أثر أطوارها أن نستنتج ما يلي:

* الثراء الكبير الذي ميّز هذه التصانيف كمّا ونوعا. فإضافة إلى أشهر المؤلّفات النحويّة وأوسعها انتشارا على مرّ التاريخ مثل كتاب "العين" للخليل، وكتاب "غريب المصنّف" لأبي عبيد، وكتاب سيبويه، وكتاب "إصلاح المنطق" لابن السكّيت⁽¹⁾ تدعّم الرّصيد اللّغوي بالمكتبات التونسيّة بما اصطحبه العلماء الوافدون معهم من كتب اللّغة والنحو. ولا نخل علماء أجلاء مثل يونس النحوي وقتيبة الجعفي وغيرهما، يفدون إلى البلاد دون أن يجلبوا معهم ما يحتاجونه من الكتب للتدريس والقراءة والتأليف.

* وفرة الإنتاج الفكري المتداول بالقيروان، سواء كان وافدا عليها، أو منتجا من طرف علمائها وأدبائها ومفكرّيها. فلقد تدعّمت حركة

¹ - ابن السكّيت ت 244هـ: هو يعقوب بن إسحاق أبو يوسف ابن السكّيت، إمام اللّغة والأدب في عصره. أصله من خوزستان وتعلّم في بغداد. من كتبه : إصلاح المنطق والألفاظ والأضداد. بقية الرواة 349/2 الوفيات 395/6.

التأليف ووسع نطاقها، نتيجة توفر أدوات الكتابة من أقلام وحرير وأدهان. وهو ما شجّع العلماء على تدوين الكتب. فمعرفة القيروانيين بالمواد المكتبيّة كان في نفس الوقت الذي عرفته فيه عواصم الأمصار الإسلامية الأخرى، وذلك لسرعة الاتصال بين هذه وتلك⁽²⁾. وبذلك ازدانت المكتبة القيروانيّة برصيد ضخم من التصانيف في شتى المجالات العلميّة. كما لعبت دورا مهماً في الحفاظ على اتصال السند العلمي بإفريقية والمغرب.

* مثلت أمّهات كتب اللّغة والنحو منطلقاً رئيسياً للدراسات النحوية. وروت لنا كتب التراجم عن تميّز نخبة القيروان في فهمها وحفظها وتداولها. فلقد شهدت دور التعليم بإفريقية تدريس هذه المصنّفات التي شكّلت نواة علم النحو. ولئن تنوّعت مجالات اهتمام النحويين، فإنّ النصّ القرآني شكّل مدوّنّة أساسية خاض فيها علماء العربية. والمتأمل في قائمة العناوين التي جادت بها كتب التراجم يلحظ أنّها تشتمل على أبحاث ذات صبغة مزدوجة أدبية لغوية. كما تهتم بمسائل في الصرف والنحو. فلقد اشتملت الدراسات اللغوية على مجموعة فروع، واهتمّت بدراسة قضايا جزئية انطلاقاً من مدوّنّة النصّ القرآني، كدراسة الاستفهام، والموصولات، والإدغام، وحروف الجر، والاشتقاق... وهي مسائل ضاربة في عمق الدراسات اللغويّة.

² - الهادي الدرقاش: المكتبة القيروانيّة: نشأتها وتطوّرها خلال القرنين 2 والقرن 3، مجلة الهداية، 1990 عدد، 1، ص 64.

* ذُكرَ بعض العناوين مصاحبة بنعوت وصفات طريفة تثير الرغبة في إدراك هذا الأثر أو ذاك وتبيّن محتواه ومنهج كتابته، على غرار ما ذكره الزبيدي بشأن كتاب "اشتقاق الأسماء" لعبد الملك المهريّ، إذ ذكر في إشارة إلى قيمته العلميّة أنّه "مما لم يأت به قطرب". كما وصف مؤلفات أحمد بن أبي الأسود "بأنّها مؤلفات حسان" دون أن يذكر عناوينها. ولئن يعوزنا هذا عن إدراك حجم الشهرة والانتشار التي حازتها هذه التصانيف، فإننا لا نشكّ لحظة في قيمتها العلميّة ونفعها الفكري لطلبة العلوم العربيّة.

لقد قادنا هذا البحث إلى استخلاص بعض النتائج حول مسار علم النحو بتونس. ومن أهمّها نذكر الأصالة العلميّة التي ميّزت الدراسات اللّغويّة حيث نشأت نشأةً مؤسّسة، واستفادت من عدّة عوامل لتنهض بعلوم اللّغة وترتقي بها من مجال التقبّل إلى مجال الإضافة. كما تبرز مظاهر تطوّر الدراسة اللّغويّة وتُضج المباحث النحويّة على غرار ما عرفته بقية عواصم الفكر في الأفطار الإسلاميّة.

المصادر والمراجع

* ابن خلّكان أبو العباس شمس الدين أحمد:

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: 8 أجزاء، تحقيق الدكتور إحسان عيّس، دار صادر: بيروت.

* ابن عذاري المراكشي:

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان وابني بروفنسال.

دار الثقافة بيروت/لبنان.

* أمين أحمد:

- ظهر الإسلام: نشر دار الكتاب العربي بيروت/لبنان. الطبعة الثالثة.

* البكري أبو عبيد:

- المسالك والممالك: 4 أجزاء. 1992. الدار العربية للكتاب. بيت الحكمة. قرطاج

* الحموي شهاب الدين ياقوت بن عبد الله:

- معجم الأديباء: الطبعة الثالثة 1400هـ/1980م، 10 أجزاء، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

- معجم البلدان: دار صادر/ بيروت 1977.

* الترقاش الهادي:

- المكتبة القيروانية: نشأتها وتطورها خلال القرن 2 والقرن 3. مجلة الهداية: العدد 1. السنة 15. 1990.

* الزبيدي أبو بكر:

- طبقات النحويين واللغويين: الطبعة الأولى 1373هـ/1954م. تحقيق أبو الفضل محمد إبراهيم.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

* السراي أبو سعيد الحسن بن عبد الله

- أخيار النحويين البصريين: نشرات معهد المباحث الشرقية بالجزائر. خزانة الكتب العربية.

* السيوطي جلال الدين:

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جزآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية صيدا بيروت.

* عبد الوهاب حسن حسني:

- خلاصة تاريخ تونس: تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، دار الجنوب للنشر: تونس، 2001.

- ورفات عن الحضارة العربية بالطريقة التونسية: مطبعة المنار: تونس 1965.

* القفطي جمال الدين علي بن يوسف:

- انباه الرواة على أنباه النحاة: 4 أجزاء، الطبعة الأولى 1406هـ/1986م، دار الفكر العربي: القاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية: بيروت.

تأملات في معاني الحياة

بقلم : الباحث محمد الرزقي

المقدمة :

إن الحديث عن الحياة هين يسير، أما تأملها وكشف معانيها فهو المستعصى العسير، فهناك بون شاسع بين الوصف والمعاشة، وهناك هوة سحيقة تفصل بين ثرثرة الشعراء والأدباء ودهشة العقلاء، فالدهشة تمكن صاحبها، أن يحول أمر الحياة من مسألة يومية، تدخل تحت نطاق العادة إلى موضوع لافت ومستفز، ليستجمع الوعي كل طاقاته، ويعمل جاهدا على كشف أسرار الحياة والوقوف على ماهيتها.

فما حقيقة الحياة ؟ وهل للحياة معنا واحدا لا تتجاوزه ؟ وما هو المقياس المعتمد لنسبغ على الموجودات صفة الكائنات الحية ؟

1- سرّ الحياة .

تعتبر الحياة هبة إلهية، لم يخترها أي كائن حي، فهي خارج الإرادة وفوق التعلق والطاقة، إذ تتعالى على كل محاولات الضبط والقهر، لذلك كلما حاول الإنسان كشف سرّ الحياة، عاد خاسئا مهزوما، لأن الحياة هي صفة من صفات الله، فهو الحي حقيقة وهو الوحيد الذي لا يموت، وهو الواهب للحياة فضلا ومئة، فلو كشف هذا السرّ، لغدت الحياة عبثا، ولا تخرم نظام العوالم، وأذن بالسقوط والتلاشي، إذ الحياة قائمة في جوهرها على فكريتي الامتحان والتكليف، فلو حصل الإنسان

أسباب الخلود لفقد الحافظ الذي يدفعه للاستمرار في الحياة، لأنه لن يخاف من المجهول ولن تورقه فكرة الموت، والتي هي الوجه الثاني للحياة، بل هي الحياة نفسها، إذ لولا وجود الموت لما أدركنا قيمة الحياة ولما تذوقنا معانيها، وما تعلقنا بها، وما كنا نجزع من العدم، وهكذا ينصهر الموت في الحياة، ليمنح العالم تماسكا وصلابة للاستمرار في العطاء، وبالتالي للاستمرار في التلذذ بالحياة ومحاولة فهمها وتوظيفها.

ومن هنا يبدأ شرف الإنسان، من خلال تصرفه في هذه الهبة وكيف سيحيها، لأنه لولا الاختيار وتحديد أنماط الحياة لتساوي الإنسان مع أدق الكائنات المتمتعة بصفة الحياة، والتي لها وظيفة في هذا الكون، تسعى جاهدة لتحقيقها، - وإن لم تختَر هذه الوظيفة - فهي مدفوعة بغريزة البقاء، في حين أن الإنسان مدفوع بالغريزة نفسها، لكن بالمقابل هو قادر على تأمل هذه الحياة، والتعالي عليها، وأن يحولها إلى مجال استثمار ومشروع للربح، وفق نظريته للمقصد من الوجود، فهو ليس مسؤولا عن وجوده، لكن بالمقابل مسؤول عن اختياراته في هذا الوجود، وبما أنه وجد دون إرادته، فليس بإمكانه التراجع عن شيء لم يردده، فلا يبقى أمامه إلا التصرف مع واقعة وجوده، وفق ما تمليه عليه درجة وعيه.

لكن أليس المنتحر متمرد على هذا الوجود القسري ومتدخل في هبة الحياة ؟

2- واقعة الانتحار

يظهر هذا الاعتراض وجيها للوهلة الأولى، إلا أنه بتأمله نتبين أن جلبته أقل من حقيقته، فهو كالصوت الغاشم الذي يربك الحالم، - ليرمي بكل شيء بين يديه- ، والمتحرر في المقام الأول متصرف في هبة الحياة وفق درجة وعبه، فيكون قد مارس آدميته وفق حدود رؤيته، كما أنه أثبت عجزه عن مواجهة واقعة الحياة، فعالجها بواقعة الموت، فاختار أن يحيى عبر الموت، لأن الوجود يتركب من حياة وموت، فهو اختار أن يكون في الخانة التي تمثل وجوده.

فإن كان تقيّمنا لسلوكه سليبا، لأن درجة وعينا مختلفة عنه تمام الاختلاف، لأننا نراه من الخارج، لا كما يرى هو نفسه من الداخل، وهذا ينطبق على مثل المجنون، إذ المجنون يرى نفسه هو العاقل، وبقية الخلق هم المجانين، وبالتالي المتحرر يرى أن حياة بقية الناس لا معنى لها، وهو الذي اختار طريق الحياة الصحيح الذي يمر حتما عبر الموت، وبالتالي هو يحيى وفق نظره الخاصة للحياة، فيكون عمله متماشيا وروح الحياة، التي سبق وأن قلنا أنها قائمة على فكرة الامتحان، فالمتحرر أنجز فرضه واستنفذ وقته وبعدها يأتي دور المصحح الذي وهبه الحياة، لذلك لا يمكن للناس أن تحكم على بعضها البعض، لأن الانتحار قد نَحْكَم عليه بأنه عمل سليبي، إلا أنه قد يكون قمة الإيجابية، لشخص على الأقل قرّر أن يختار شيئا، فما بالكم بمن لا يختار أي شيء، ويعيش لأنه وجد في هذه الحياة، بل أحيانا يعيش ليأكل فحسب.

وبعد خفوت دوي هذا السؤال، وانكشاف الغبار، علمنا أن الذي كان تحتنا حصان لا حمار، فيواصل الجموح، ولا يتوقف عند هذه العقبة، التي بدت للوهلة الأولى أنها عقبة كؤود ، فيقفز فوق واقعة المتنحر إلى سهل أكثر اشتعالا، وأولى ألسنة اللهب التي تطل علينا برأسها من هذا السهل، هو السؤال الحارق التالي: ما هو المقياس الذي نعتمده لنصنف الكائنات الموجودة خارجنا ونسبغ عليها صفة الحياة ؟

3- مستويات الحياة .

قبل الخوض في تفاصيل ضوابط هذا المقياس، لا بد لنا أن نؤكد بداهة أولى سبق أن قررناها، وهي أن وجود الإنسان في هذا العالم، كان كرها وبالتالي هو قدر محض، وتوابع هذا الوجود القهري القدري، يفرض على الإنسان أن يختار نمط حياته، والذي سيحدد نظرتة لوجوده وللعالم من حوله .

فإن اكتفى بذاته واعتكف عليها، موفرا لها كل متطلبات الغريزة من أكل وتناسل وسلامة من الأخطار، فسيفقد ميزته الإنسانية التي تجعله يتميز عن بقية الكائنات الأخرى، ويسقط في شرك الجسمية، التي يشترك فيها مع سائر الحيوانات، فيصبح واحدا منها، ويفقد الحدّ الفاصل حسب تسمية المناقطة وهو التفكير أو العقل، وأولى مظاهر العقل هي الكلام، فاللغة هي وهب واكتساب في الآن نفسه، فبعد إيجاد الإنسان أمده الله بجملة من الاستعدادات الحسية والمعنوية، ويتمثل دور الإنسان في تنمية هذه الملكات، فالإنسان وجد وقلبه ينبض ومعدته

تتضمن وسائر حواسه قابلة للحياة وقابلة للنمو والزيادة، سواء ما تعلق منها بالجانب الحسي أو المعنوي، لذلك وهب الله أول خلقه اللغة، وأوفده لهذا الوجود لينميها من خلال توسيع جهازه اللفظي، وتوسيع هذا الجهاز هو في حقيقة الأمر يوسع فهمه للعالم، فلم يعد قدر الإنسان موجوداً دون إرادته فحسب، بل مدفوعاً بجملة من الاستعدادات لاكتشاف ما حوله، وأول خطوة خطاها الإنسان في هذا العالم، هو أن سمى نفسه، ثم سمى الأشياء التي تعترضه أو تقع عليها حواسه الخارجية أو الداخلية فيميزها.

وبهذه الأسماء أو العلامات، فإن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على منح صفة الحياة للأشياء، والتي كانت خارج دائرة إدراكه، وبالتالي يكون قد بعثها حياة تروّزق أمام وعيه، وأمام نظر الإنسانية قاطبة، فالإدراك الإنساني يقوم على تناسل الوعي وانتقاله من جيل إلى آخر وفق استعدادات كل فرد، فالانتساب إلى دائرة الإنسانية يخضع للوعي لا للصورة والشكل.

وأول بوادر الحياة التي تسرى للأشياء هو تسميتها، وبعد تسميتها وبعثها للحياة، تتولد أسئلة أخرى، منشؤها هذا البعث، وهي هل للحياة مفهوم ثابت؟ وهل هذه الأشياء التي تؤثث العالم من حولنا كائنات حية بالمعنى المجازي أم الحقيقي، وكيف نستطيع ترتيب كائنات هذا الوجود وفق مقياس الحياة؟

والجواب الأولى عن هذا السؤال أن الكائنات الحية، هي الكائنات

التي تتنفس أو ذوات "الأنفس السائلة" كما يسميها الفقهاء، والنفس السائلة كناية عن الدم، وما يمثل الدم من معاني الحياة، إذ يرمز الدم دوماً إلى حرارة الحياة مقابل البرودة، والتي يجسمها الموت، رغم أن الموت والحياة يتكاملان معا ويعملان معا، فلا معنى لنعمة الحرارة دون صقيع، ولا قيمة لنعمة البرودة دون لفيح، وكأن الموت والحياة نظام كهربائي لا يضيء إلا بالتقاء وحدة الحياة الموجبة ووحدة الموت السالبة فيشع الوجود ويستمر في الحركة.

لكن من شروط الحياة توفر استعدادات ذاتية داخل هذه الكائنات إضافة إلى توفر واقع موضوعي ملائم يساعد في استمرار هذه الكائنات ونموها وهي الشروط الخارجية، لذلك تحتاج الكائنات أن تولد مزودة بجملة من الأجهزة والأعضاء، التي تساعد على تحقيق هذه المهمة، إلى جانب حاجتها للغذاء والشمس والهواء، وسائر الشروط الموضوعية الأخرى، كما تتميز بقدرتها على التناسل والتنقل والإحساس.

ونجد على رأس هذه الأنواع التي لا تخطئ العين في تمييزها بصفة الحياة، الجنس الإنساني والجنس الحيواني، بقطع النظر عن مواطن التقاطع أو التواصل القائم بينهما، إلا أن النباتات رغم افتقارها جملة من هذه الشروط، مثل القدرة على التناسل أو التنقل، فإنها تجمع بقية الشروط بكل اقتدار، ويكفي أنها تتميز بحس عال وقدرة على النمو، زيادة على أن بعض أنواعها لا تثمر إلا 'ن طريق "التلقيح الجنسي" الطبيعي منه والصناعي.

فهل أن أنواع الكائنات الحية تقف عند هذه الأصناف الثلاثة، التي نستطيع رؤيتها والوقوف على مظاهر الحياة فيها ؟

يقدم لنا العلم إجابة حاسمة في هذا الباب مؤكدا أنه توجد كائنات مجهرية تتمتع بصفة الحياة، ولها دورة حياتها الخاصة بها، والتي لا نستطيع رؤيتها بالعين المجردة، بدءا بالذرة وانتهاء بالجراثيم، وجميعها تشكل دعائم العالم الذي نعيش فيه، وبدونها يفقد العالم توازنه، وبالتالي كل ما يحيط بنا ينبض بالحياة عكس ما نعتقد، فدرجة التقاط مظاهر الحياة يختلف وفق الزاوية النظرية والأجهزة المستخدمة في الرصد، ليتبادر سؤال ملح حول تصنيف الجبال والصخور والكواكب، والتي يحلو لنا أن نسميها بالجمادات، فهل هي حقاً جمادات لا حس فيها ؟

والجواب عن هذا السؤال، نتركه للعدد القادم، حتى نبقي محيط التشويق مشدودا بيننا وبين القراء، كما نفسح المجال أمامهم حتى يشاركونا في قلب أحجار هذا البناء، لأن زمن الأساتذة والفائحين والمبشرين قد انتهى.

فتمهل أنفسنا شهرا آخر لنحدد اللقاء، ونتحلق حول موائد الحكماء، فمن يجيب النداء يا ترى !!! .

الظاهرة الدينية في كتاب :

"الفصل في الملل والأهواء والنحل"

لابن حزم الأندلسي (1)

بقلم الباحث: صالح الأحدي

مقدمة :

إذا رام الباحث أو الدارس الاشتغال بالظاهرة الدينية، فإنه لا شك سيعرض أمامه اصطلاح الظاهرة، باعتبارها أمانة على ما يظهر من سلوكات وممارسات ترتبط أساساً بالإنسان وما يقوم به ظاهراً للعيان، لا يهم فيه الباطن. وفي لسان العرب: >> ظاهر الجبل أعلاه وظاهرة كل شيء أعلاه استوى أو لم يستو ظاهراً، وإذا علوت ظهره فأنت فوق ظاهريته. يقال ظهر فلان الجبل إذا علاه وظهر السطح ظهوراً، علاه والظهر ما غاب عنك. يقال تكلمت بذلك عن ظهر غيب والظهر فيما غاب عنك والظاهرة: العين الجاحظة، وهي خلاف الغائرة، وظهر الشيء بالفتح، ظهوراً: تبين وأظهرت الشيء: بينته. والظهور: بدو الشيء الخفي. يقال أظهرني الله على ما سرق مني أي أطلعني عليه.<<¹ فكل ما يبدو من ممارسات ثقافية ودينية هي ظاهرة تدرك للناس. والدين عبارة عن >>نظام متضامن من المعتقدات

¹ - ابن منظور: لسان العرب دار صادر بيروت ط1. 1997 ج 4 مادة ظهر ص 658

والممارسات المتعلقة بالمقدّسات... هذه الممارسات توحد جميع من يعتنقها في مجتمع معنوي واحد² وهو أيضا >>ظاهرة من الظواهر الاجتماعية، تخضع لقوانين التطوّر الاجتماعي. ففي المجتمعات البدائية اتّخذ الدّين أشكالاً بدائية، وفي المجتمعات الرّاقية اتّخذ أشكالاً راقية ولا يزال يتطوّر تحت تأثير الثقافة المعاصرة وأشكالها وتيّاراتها...³ فالدين طريقة للتصرف في المجتمع، أي رابط اجتماعي يتولّد عن التفاعل بين الأفراد ويأخذ البعد السلطوي من خلال مقدّساته. ولكن كانت كل ديانة عالماً متشعباً معقداً بظواهرها الخاصة العقائدية والتشريعية ومدى توسّعها في الزمان والمكان، فإن البحث في الديانات يلزم المتخصّص باستكشاف عالم ديني معين، إذ لا يمكنه أن يقارن إلا من خلال تحليل دقيق لعوالم دينية معينة وهذا قد يجلي حضور الظاهرة الدينية في المجتمع أو المجتمعات المدروسة. وإنما دراسة الظاهرة الدينية أمر تقتضيه ضرورة الاجتماع البشري ومدى التواصل الاجتماعي، ثم إن الإنسان فطر على الاعتقاد ومن ثم تطبيق هذا الاعتقاد إذ عرف التاريخ البشري حضوراً مكثفاً للممارسة الدينية بشكل أو بآخر، والسائد في الرسائل السماوية أن الله لم يترك خلقه منذ آدم بلا توجيه أو عناية عن طريق الرسل والأنبياء. ولكن ممارسة

2 - جون بول وليم: الأديان في علم الاجتماع ص 26

3 - راجع في ذلك: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي: كميل الحاج/ مكتبة لبنان

الناس للدين اختلفت وتنوعت بحسب الفهم وحسب الزمان والمكان، فظهرت الملل والنحل والأهواء. والملة هي >> آراء وأفعال مقدرة مقيّدة بشرائط يرسمها للجميع رئيسهم الأول يلتمس أن ينال باستعمالهم لها غرضاً له فيهم أو بهم محدوداً. والجميع ربّما كان عشيرة وربّما كان مدينة أو صقعا، وربّما كان أمة عظيمة وربّما كان أما كثيرة، الملة والدين يكادان يكونان اسمين مترادفين... والملة تلتزم من جزئين من تحديد آراء وتقدير أفعال >>⁴ وفي التراث العربي الإسلامي اهتمام خاص بالظاهرة الدينية وملاحظها من منطلقات متباينة. فكيف تناول ابن حزم هذه الظاهرة؟ وما هي خصوصياتها في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل؟

I (غطية الظاهرة الدينية في كتاب الفصل لابن حزم⁵ :

في محاولة تحسّس ثم استئناس بمعالجة وطرح ابن حزم للظاهرة الدينية في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، يظهر أنّه يخالف غيره من الذين اشتغلوا بهذه الظاهرة، فهو ينصّص منذ مقدّمة الكتاب على أنّه جمع كتابه خلافا لما عمل به غيره من الذين >> كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم ومقالاتهم كتباً كثيرة جداً فبعض أطال وأسهب، وأكثر وهجر واستعمل الأغاليط والشغب فكان ذلك شاعلاً عن الفهم وقاطعاً

- موسوعة مصطلحات العلوم الاجتماعية والسياسية في الفكر العربي الإسلامي ص 992/991⁴

5 - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ولد بقرطبة (384 هـ - وتوفي سنة 456 هـ)

دون العلم، وبعض حذف وقصر، وقلل واختصر...»⁶ إذا فصاحتنا لا إلى هؤلاء بميل ولا إلى أولئك أميل وإنما شدّ عليهم ويّن مقصده من هذا التأليف حيث قال: >> وقصدنا به إيراد البراهين المنتجة عن المقدمات الحسية أو الرّاجعة إلى الحسن من قرب أو من بعد... وبالغنا في بيان اللفظ وترك التعقيد»⁷ يبدأ ابن حزم في دراسته للعلل والأهواء والتحل من البحث في أحوال الفرق المخالفة لدين الإسلام وهي عنده ستّة فرق يعتبرها الفرق التأسيسية لما سيتجهمر حولها من فرق فرعية، وهي في الغالب غير معاصرة لابن حزم ثم يتعمّق في معالجتها ومجادلة طروحاتها، وهنا يجوز لنا أن نتساءل عن موارده التي اعتمدها في طرحه هذا. ورؤوس الفرق عنده بحسب إبطال الحقائق وإثباتها فرقتان: المبطلون للحقائق وهم السوفسطائيون >> وكلمة سفسطائي تأتي من كلمة "سفسطس" التي كانت تعني المعلم في أي من العلوم وخاصة علم البيان ثمّ عنت الحكيم وقد نعت السفسطائيون بالمغالطين والمجادلين وأنهموا باستخدام العلم في سبيل التجارة وتحريف الحقيقة في سبيل الفن»⁸ والمثبتون فرقة واحدة، إلا أنّ ابن حزم فصلهم إلى فرق وفق معيار القول بين أزلية العالم وحدوثه.

6 - ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والمحلل: لابن حزم الأندلسي تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر -

د. عبد الرحمن عميرة ط - دار الجبل - بيروت، لبنان ج 35/1

7 - المصدر نفسه ص 36

8 - الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي: كميل الحاج / مكتبة لبنان ناشرون ط 1 سنة 2000

1) مصادر المعرفة في نمط ابن حزم

يعقد ابن حزم باباً مختصراً جامعاً خاصاً بالبراهين التي يرى أنها توصل إلى معرفة الحق من بين الاختلافات والانقسامات وهو باب يريد أن يثبت من خلاله "العقيدة الصحيحة" وأسسها عنده وبالتالي فإن أي عقيدة أو ملة أو نخلة مخالفة لها هي باطلة وفاسدة وإنما طرحها ابن حزم حتى يبرهن للقارئ على بطلانها، فالباحث عن الحق بين كل هذه الاختلافات يجب أن يفقه مجموعة البراهين التي قدمها ابن حزم كوصفة جامعة، واقية لمن يعمل بها من الوقوع في زلل التشبث والانزلاق في مهاوي الفرق بسبب ترك الظاهر من النص والته في ضلال الباطن. وعنده، كانت الحواس الخمسة التي يشترك فيها الإنسان مع غيره من الحيوان والنبات الوسيلة الأولى للإدراك وتبين حقيقة الشيء. ويضرب ابن حزم مثلاً لذلك "الطفل" - وهو الإنسان في بداية وجوده - إنما يستكنه الوجود من حوله بما أودع فيه من أسرار الحواس، ولإنسان عند ابن حزم إدراك سادس وهو العلم بالبدهيات من ذلك العلم >> بأن الجزء أقل من الكل... وبأنه لا يجتمع المتضادان... وبأنه لا يكون جسم واحد في مكانين... ولا يكون الجسمان في مكان واحد... ولا يعلم الغيب أحد... ولا يكون شيء إلا في زمان... ولا يكون فعل إلا من فاعل... <<⁹ وهي من الأمور التي يعتبرها ابن حزم

⁹ - ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والمحلل: لابن حزم الأندلسي تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر -

د. عبد الرحمن عميرة ط - دار الجبل - بيروت، لبنان ج 40/1

من أوائل العقل، أو هي مقدّمات صحيحة >> لا شكّ فيها ولا سبيل إلى أن يطلب عليها دليلاً إلا يجنون أو جاهل لا يعلم حقائق الأشياء... فلا سبيل إلى الاستدلال عليها، إذ لا وقت يمكن فيه الاستدلال على ذلك فصحّ أنّها ضرورات أوقعها الله تعالى في النفس، ولا سبيل إلى الاستدلال البتّة إلّا من هذه المقدّمات ولا يصحّ شيء إلا بالردّ عليها، فما شهدت له مقدّمة من هذه المقدّمات بالصحة فهو صحيح متيقن، وما لم تشهد له بالصحة فهو باطل ساقط. <<¹⁰ وهذه البراهين التي قدّمها ابن حزم سيعول عليها في طرحه ومعالجته لأفكار أصحاب الملل والنحل، وهي عنده بمثابة المسبار الذي يفرّز به الحق من "الباطل"، فإذا كلّ ما يخالف هذه البراهين هو زاهق، فاسد... إن ابن حزم من خلال تحديده هذه المقدّمات في بداية اشتغاله على الملل والأهواء والتحل، إنّما أراد أن يؤسّس لرؤية الخاصّة به تناسب منحاه الظاهري في معالجة القضايا، هي رؤية ترسم ملامح الظاهرة الدينية وخصائصها ضمن الطروحات العقائدية والفكرية.

(2) إبطال عقائد أهل الأهواء في نمط ابن حزم

كان حديثه عن الفرقة الأولى (مبطلوا الحقائق) مقتضباً، فقد عرض موقفهم ثمّ ردّ عليه من طريقين: طريق نفى به مزاعمهم وبطلانها، وطريق إثبات خلافها، ولم يتجاوز ابن حزم في هذا القسم بعض الوريقات. أمّا القسم الثاني فقد خصّ به طائفة أخرى وهم القائلون

¹⁰ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والتحل ج1 ص41 - 42

"بأن العلم لم يزل وإثمه لا مدبر له" وهم عنده مجموعتان: الأولى فرقة الدهرية وهم <<القائلون بتأثير الدهر ويعتقدون أن الدهر هو الذي يعطي السعادة والشقاء>>¹¹ والفرقة الثانية هم الذين قالوا "أن العالم محدث" ويبدأ ابن حزم في عرض حجج القائلين بأزلية العالم وهي خمسة اعتراضات عنده تمثل مواقف هؤلاء وآراءهم بسطها ابن حزم بطريقة محدودة جداً دون تفصيل. ويظهر أنه يسعى بذلك إلى التقليل من شأنها أمام ما سيذكره من أدلة على بطلانها لاحقاً، وربما حتى لا ينساق القارئ وراء هذه الاعتراضات، وقد تستهويه فيتبناها، إنها طريقة يقرّم بها ابن حزم الموقف المخالف منذ البداية تمهيداً للقول بفساده. ولعلّ ما ينقص هذه الاعتراضات ذكر موارد عن هؤلاء وأولئك، فلا نكاد نعرّ على ذكر مورد واحد في اعتراضات ابن حزم سجلت من خلاله هذه الطائفة مواقفها، إنه حقاً نقص يسأل عنه ابن حزم، ولو أردنا أن نبرّر هذا الغياب فلا يمكن أن يكون إلا بسبب إنكاره لهذه الآراء وإفسادها حتى قبل مجادلة أصحابها، بتغيب ذكر المؤلفات التي احتوتها، وأهمّ الأعلام التي تبنتها. إنه تمعّيش واضح لمن خالف رأي ابن حزم فلا يذكرهم إلا في ضمير الغائب، وفي استعراضه لأقوالهم "قالوا" يتكرّر هذا الفعل في كلّ الاعتراضات عديد المرّات، ثمّ يُعده يتكرّر أيضاً في إطار الردّ وإفساد هذه الاعتراضات "ويقال لمن قال" وهو أسلوب

11 - السيّد جعفر سجّادي: قاموس المصطلحات الفلسفية عند صدر المتألهين / ترجمة علي الحاج

جذالي يضع فيه ابن حزم منافسه - الحاضر بذكر اعتراضه وآرائه، الغائب بحقيقته - أمامه مطأطئا رأسه جاهلا بمعرفة الحقيقة، بل مذنباً في مخالفته لرأي ابن حزم لأنه بعد أن يطرح أمامه الاعتراضات وما يفسد كلَّ اعتراض منها ويبطله، يمرّ إلى إيراد البراهين الضرورية التي تشعره بأنّه أفحم بمجادله ومخالفه، فكما عرض ما يفسد المواقف الخمسة المخالفة أتى ببراهين مناسبة لصحة طرحه، بل إنّه ذكر أدلة أخرى زيادة على تلك البراهين، ليسكت كلَّ من قد تحدّثه نفسه بالاعتراض عليه. والمدقّق في براهين ابن حزم في هذا القسم يجد أنّها لا تخرج عمّا رسمه منذ البداية من طريق يوصل إلى معرفة الحقّ عنده. فكان طرحه لهذه الأدلة ومجادلته في هذا القسم لمخالفه تتمّ عن ثقة في النفس وبسطة في العلم يفتقدها غيره. ثمّ جادلهم. وفي إطار معالجته تكلم عن مجموعة أخرى من المخالفين القائلين "إن العلم لم يزل وله مع ذلك فاعل لم يزل" فأبطل قولهم هذا، بل لم يترك لهم مجال يعترضون عليه أو به، فهو يقول: >>قد أفسدنا بحول الله وقوّته بالبراهين التي قدّمنا هذه المقالة<<¹² ومن المجموعات التي تكلم عنها ابن حزم فرقة تقول "إن للعالم خالق لم يزل، وإنّ النفس والمكان المطلق الذي هو الخلاء، والزمان المطلق الذي هو المدة لم تزل موجودة، وأنّها غير محدثة" وذكر هنا أنّه يكون قد التقى ببعضهم وناظرهم في هذا ليثبت لهم في النهاية فساد مذهبهم، فقال >>وقد ناظرني قوم من أهل هذا

12 - ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والتحلل ج1/71

الرأي... فالزمتهم إزامات لم ينفكوا عنها. أظهرت بطلان قولهم بعون الله تعالى وقوته >>¹³ ثم عرض أقوالهم وردّ عليها بصيغة المجهول " قيل لهم " ولعلّه بذلك يريد أن يبيّن أنه لا يجادل باسم رأي فردي وإنما يحمل هذا الأسلوب على أن ابن حزم إنما يتكلم برأي جماعة فوّض من أجل عرض مواقفها وردودها على المخالفين، ولا شك أنّها جماعة الظاهرية، التي هو لسان حالها في الغرب الإسلامي ورمزها الذي يذكره تذكر. ومن الفرق التي ردّ عليها ابن حزم مجموعة تقول: " بتعدّد فاعل العلم ومدبره " وهنا يذكرهم دون تفصيل، من ذلك القائلون بتدبير الكواكب وأزليتها وهم فرق الخووس، وفصل ابن حزم الكلام قليلا ما عن فرقة الصابئة >> وقد أطلق اسم الصابئة قبل الإسلام على فئات واسعة من سكّان ما بين النهرين... وقد ذهب الكتاب في تفسيرها مذاهب شتى، فمفهوم من أشار إلى أنّها تعني الخروج عن دين القوم وفهم الشهرستاني من كلمة صبا الزيف والضلال، ويرى ابن خلدون أنّها مشتقة من اسم صابي بن لامك وهو أخو نوح... وأصل الكلمة آرميا وجذرها (صبا) وتعني يتعمد وعمليّة التعميد هي الإنغماس في حوض الصبغ يدخل فيه غير طاهر ليخرج طاهرا >>¹⁴. ثمّ يمرّ إلى عرض حجج القائلين بأنّ " الفاعل أكثر من واحد " وهي استدلالات فاسدة، أبطلها ابن حزم من عدّة وجوه وكان مستيقنا من رأيه معوّلا على الله

13 - المصدر نفسه ص 73

14 - عزيز سباهي: أصول الصابئة و معتقداتهم الدنيّة / دار المدى للثقافة و النشر سوريا ط2 ص

تعلّى راجعاً منه التوفيق في كلّ ردوده وإبطاله لمن خالفه، وهو بذلك يتدرّع بدرع رוחي لعلّه يوفر له صلابة في الحجة وقوة البرهان، أو لعلّه يحميه من ألسنة النقاد - رغم أنّه سليط اللسان -

إنّ مقارنة ابن حزم في معالجة الظاهرة الدينية من جهة رفضه لكلّ من خالفه، هي مقارنة منغلقة، وهي منفتحة على الآخر المخالف من جهة ذكره وعرض مواقفه الباطلة عنده ربّما بسبب عدم تجرّده هنا ممّا هي عليه ثقافته ومعتقداته، بل كان حضورهما قوياً في هذه المعالجة، ويظهر أنّ هذا الحضور فرضه الواقع الثقافي والديني الذي تميّز بكثرة الجدل، ومقارعة الحجج والبراهين واقع >> كثير في المذاهب من ظاهريّة ومالكية وشيعة إلخ، فكثرت جيّهم للجدل بعد أن كانوا منصرفين عنه، حتّى حكى بعضهم أنّهم كانوا كثيراً ما يتجادلون في مجلس العزاء. وسبب آخر لهذا الجدل وهو كثرت في المشرق، حتّى ألف المشاركة علما سُمّوه علم المناظرة أو أدب البحث، وألّفوا علما "علم الخلافات" وقد نقل ذلك إلى الأندلس فازداد نشاطهم في البحث والمناظرة >>¹⁵ فجاء ابن حزم في ظلّ هذا الواقع في كتابه، مواجهها مدافعاً عن العقيدة الصّحيحة، مبطلا لما عداها من العقائد الوثنيّة دون تفصيل أو تفريع، قد يحتاجه القارئ خاصة من رجل له علم بالملل والنحل صاحب المؤلف الحامل لعنوان "الفصل في الملل والأهواء والنحل" وفي باطنه إشارات وتلميحات لمواقف محدّدة تفتح الشهية لمزيد الاطلاع ويمسك ابن حزم

15 - أحمد أمين: ظهر الإسلام / مكتبة النهضة المصريّة ط7 1999 ج3 ص68

في هذا القسم من الكتاب عن البيان ليخيب أمل المطلع ويجعله يفكر في مراجع أو مؤلفات أخرى لابن حزم أو لغيره تفصل حقيقة هذه العقائد وحقيقة أصحابها، ليعود بعد ذلك إلى كتاب "الفصل" ثم ينظر في الردود والاستدلالات على بطلان هذه العقائد. ويظهر أن تقصير ابن حزم في هذا الجانب مرده إلى عدم انتشار تلك الملل في عهده أو ربما قلة انتشارها، وأيضا فإن العامل الجغرافيمذهبي كان له أثر في التقليل من حضور أفكار وأصحاب تلك العقائد في كتاب "الفصل"، وكذلك العامل الثقافي والاجتماعي حيث كان اعتقاد الناس في عهد ابن حزم يغلب عليه الطابع التوحيدي السماوي (إسلامي - مسيحي - يهودي) وهذا ما جعل القسم الأكبر يتناول الظاهرة الدينية الخاصة بالرسالات السماوية الثلاثة.

ARCHIVE

مدخل أول : حدود الأجناس / أجناس بلا حدود :

هل يصح القول بوجود حدود تفصل بين الأنواع أو الأجناس الأدبية أم أنه لا حدود بين الأجناس؟ من خلال هذا السؤال تنطلق مقارنتنا لتثبت أن الحواجز بين الأجناس الأدبية لا تعدو أن تكون حواجز وهمية يمكن تخطيها إذ لكل نص أدبي مهما كان جنسه أن يقيم في نص آخر ينتمي إلى جنس مغاير ويتجاوز تخومة، أفلم يقل موريس بلانشو Mourice Blanchot منذ سنة 1959 "لا شيء أهم من الكتاب نفسه بعيدا عن الأنواع الأدبية وعن التصنيفات ثرا، شعرا، رواية قصصية، سيرة ذاتية كانت، فالكتاب يفرض أن يدخل تحت إحدى هذه التصنيفات كما أنه ينفي عنها صفة تحديدها لمكانته ولشكله. فالكتاب لا ينتمي اليوم إلى نوع أدبي معين، وكل كتاب لا يقوم اليوم إلا على مفهوم الأدب وكأن هذا الأدب يحوي مسبقا في عمومياته الأسرار والصيغ التي يمكنها وحدها أن تكسب الكتابة واقعها ككتاب" (244-243 p. le livre à venir) (1).

بقلم: أسعد أبو السعود الإتحاف 181 جانفي 2008

دور القصة القرآنية في التربية الاجتماعية

بقلم : الأستاذ عبد الكريم العطاوي

يتجلى هذا الدور بوضوح في قصص الأنبياء المعروضة في القرآن الكريم، التي تشير في مجملها إلى الجدل الذي دار بين محمد صلى الله عليه وسلم مع مخالفيه، وكيف كان يبشّرهم برضوان الله، ويحذّرهم من معصيته، ويشرح لهم، - في منهجية قصصية - مبادئ الدعوة الإسلامية، وأهدافها وبالتالي تثبت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن اتبعه على الإيمان، وفي الدلالة على صدق نبوته، وأنه مبلغ عن ربه.

" فحين جاء محمد صلى الله عليه وسلم بهذه القصص الرائعة عن الأنبياء قبله، بهذا البيان، والتفصيل المحكم، وهو النبي الأمي الذي لم يتلمذ على أحبار اليهود، ورهبان النصارى وسواهم كان بذلك يقدم اعظم دليل على ان ما يأتي به هو وحي إلهي " (1) قال تعالى : " تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل " (2) . " والغاية من قصص الأنبياء بيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح إلى عهد محمد، وأن المؤمنين يرسل الله كلهم أمة واحدة، والله الواحد هو رب الجميع، فليس بين الأديان السماوية : اليهودية والمسيحية والإسلام تنافر بل إنها جميعا تستقي من نبع واحد، وكل نبي ، إنما يأتي برسالة متممة ومكمّلة لرسالة النبي الذي سبقه قال تعالى ، مخاطبا أمة محمد " (3) " شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا،

والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه " (4) .

كل ذلك يدل على أن قصص القرآن كانت لغرض تقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه على الصراط المستقيم : " وذلك لمزجها بالعقيدة والمعرفة والعاطفة والفكر والحق والجمال. فهو لم ينس حظّ العقل من حكمة وعبرة، ولا حظّ القلب من ترقيق وتحذير كل ذلك ليجعل بذور العقيدة التي يدعو إليها ضاربة في أعماق النفس. لأن هدفه الأول أن يصنع رجالاً، لا أن يلقي مواعظ وأن يصوغ ضمائر، لا أن يسرد وقائع، وأن يبني أمة، لا أن يقيم فلسفة " (4).

بهذه المنهجية القرآنية في سرد القصص النبوية، نلاحظ أن القصة القرآنية لا تختلف في شيء، في نزولها على النبي صلى الله عليه وسلم عن نزول القرآن في المواضع الأخرى، حيث كانت تتفق مع تلك المواضع في الوسط بين العقل والعاطفة والواقع المحسوس، مما جعلها تحدث وقعا في النفس فتتقاد إليها مستسلمة عن اقتناع تام، لا تشوبه شائبة، والسر في ذلك يعود إلى نفاذ القصة القرآنية إلى القلوب فتعمل على تحريكها وتنبيهها إلى الحق الذي بعلو ولا يعلى عليه، ومن ثم استطاعت أن تكون أمة من أحسن الأمم تعرف مالها وما عليها من واجبات، وتعطي لكل ذي حق حقه، كما هو ملاحظ في الأمة الإسلامية التي استطاعت أن تنتشر على الكرة الأرضية في أزمنة قصيرة، لأنها كانت متسلحة بالصر والإيمان.

فوائد القصة القرآنية بالنسبة إلى الدلالة الاجتماعية :

نحملها فيما يلي ، كما أشار إليها مناع القطان في : مباحث في علوم القرآن

1- إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدوني" (5).

2- تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وقلوب الأمة المحمدية على دين الله، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله، قال تعالى : "وكلّا تقصّ عليك من أنباء الرّسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين" (6).

3- تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم

4- إظهار صدق محمد صلى الله عليه وسلم، بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال

5- مقارعة اهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى وتحمديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل كقوله تعالى : "كلّ الطعام كان حلّا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة فل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين" (7)

6- والقصص ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليه السمع، وترسخ عبره في النفس قال تعالى : "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب" (8)

هذه الفوائد ، إن دلت على شيء، فإنما تدلّ على أن للقصة القرآنية أثرا في الناحية الاجتماعية الإسلامية، تجسّم ذلك في سلوك الأفراد فيما بينهم، وظهر جليا في المعاملات الاجتماعية المتسمة بالجدل والتي هي أحسن،

وبالصبر إن لمت بهم مصائب، وفي أسلوبهم القصصي المشحون بالمعاني المفيدة الكثيرة .

الخلاصة :

تجسّم ذلك في أسلوب الآيات القرآنية التي كانت تسوق قصصا قرآنية مملوءة بكثير من المواعظ والعبر الماضية، لتكون سندا قويا للنبي صلى الله عليه وسلم، ولاتباعه على المضي في نشر الدعوة الإسلامية، ولتكون يانا جليا للمشاركين وللناوئين، حتى يعتبروا بما انتابت به المجتمعات الكافرة من قبلهم من الهلاك والتدمير، ونتيجة لمواقفهم الجاحدة من الدعوات الدينية التي جاعلهم عن طريق رسلهم.

كل هذه الدلالات التربوية، ما كانت لتحصل لو نزل القرآن الكريم جملة واحدة، لذلك نلاحظ أن القرآن الكريم في نزله منجما على النبي صلى الله عليه وسلم، كان يمتاز عن الكتب السابقة في معالجته المشاكل الاجتماعية، التي عمل على حلها بمرحلة حكيمة، أرادها الله تعالى في كتابه الخالد قال تعالى : "إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون" (9).

الهوامش :

- 1- عفيف عبد الفتاح طيارة / مع الأنبياء في القرين الكريم / 24
- 2- هود / 49
- 3- عفيف عبد الفتاح طيارة / مع الأنبياء في القرآن الكريم / 24
- 4- محمد الغزالي : نظرات في القرآن / 157
- 5- الأنبياء / 25
- 6- هود / 120
- 7- آل عمران / 93
- 8- يوسف / 111
- 9- الحجر / 9

حلقات تاريخ علم الوراثة

بقلم : د. ضياء بوكسيلة*

الجزء الرابع :

أوزفالد ثيودور آفيري

الكاشف عن انجمل المادي للمعلومات الوراثية

1- أوزفالد ثيودور آفيري : الصبي واليافع

ولد أوزفالد ثيودور آفيري (Oswald Theodor Avery) في نهاية القرن التاسع عشر، وتحديدًا في الواحد والعشرين من أكتوبر سنة 1877، في بلدة هاليفكس (Halifax) من مقاطعة نونافسكوتيا (Nova Scotia) بكندا، وكان والده رجل دين مسيحي.

تزامن بلوغ الصبي أوزفالد العاشرة من عمره مع انتقال أسرته للاقامة بالولايات المتحدة الامريكية، حيث التحق والده بالعمل في احدى كنائس مدينة نيويورك. ومثلت هذه الهجرة منطلقا لسنوات من الكفاح من أجل لقمة العيش في المدينة المزدهمة. لقد كان والد آفيري- عائل الاسرة الوحيد- ينتفع بجراية محدودة خصصتها له الكنيسة، وهي بالكاد تكفي حاجيات أسرته تنضاف اليها هبات مادية تتأتى بين الفينة والاخرى من أثرياء المدينة الداعمين للكنيسة.

في هذا الجو الروحي المقعم بالكد نشأ أوزفالد ثيودور آفيري وبدأ عوده

بالاشتداد وكان الشاب اليافع دائم التأهب لمساعدة والده على النهوض بأعبائه المختلفة، من ذلك أنه تعلم العزف بالبوق ومارسه أثناء أداء قداس الأحد بالكنيسة حيث يعمل والده، وقد برع آفيري في ذلك أيما براعة شهدت له بها الكنيسة.

2- أوزفالد ثيودور آفيري: الطالب والطبيب الشاب

لقد ذاع صيت العازف الشاب حتى أن الكنيسة كافأته على موهبته بتمكينه من منحة للدراسة بالمعهد الوطني للموسيقى (National Conservatory of Music)، وكانت تلك بداية رحلة آفيري الدراسية. أتم آفيري تكوينه الموسيقي ثم انتقل إلى أكاديمية "كولجايت" (Colgate Academy) حيث تلقى تكويناً علمياً متنوعاً استمر لسنوات، ومن الطريف أن الطالب الشاب لم يفقد شغفه بالموسيقى حيث كان خلال سنوات دراسته وبالإضافة إلى نبوغه اللافت قائد الجوقة الموسيقية للمعهد.

أثر ذلك تخرج آفيري من الأكاديمية وانتقل لدراسة الطب بمعهد الأطباء والجراحين (College of Physicians and Surgeons). لقد كان الطب في تلك الفترة يعيش المنعطف الفاصل بين قرنين وكانت الكثير من المفاهيم الطبية بصدد التغير والتبلور، ذلك أن الأطباء قد بدأوا يستوعبون دور البحث العلمي في الكشف عن عوامل الأمراض ومسبباتها وأهمية ذلك في إيجاد المضادات والعلاجات الملائمة. في خضم ذلك لم يكن الطبيب الشاب أوزفالد آفيري سيئ الأداء من الناحية

الأكاديمية (Clinic) ولكنه كان يجد متعة أكبر في مجال البحث العلمي والطبي.

3- أوزفالد ثودور آفيري: الباحث والأستاذ

في سنة 1907 قبل آفيري دعوة لإدارة مختبر "هواقلاند" (Hoagland) المختص في مجال البحث العلمي حول البكتيريا بمدينة بروكلين (Brooklyn) بالولايات المتحدة. في هذا المختبر أدار الأستاذ أوزفالد ثودور آفيري عديد الأبحاث العلمية متنقلا بين تقنيات كيميائية ومناعية متنوعة ومركزا اهتمامه على البكتيريا المسببة لمرض السل. نشر آفيري جملة أعماله في دراسة صدرت له سنة 1913، وقد لاقت هذه الدراسة صدى واسعا حتى أن "مستشفى ومعهد روكفيلر" (Rockefeller Institute Hospital) عرض على آفيري فرصة للعمل بدخله من أجل مزيد تدقيق وتعميق نتائج أعماله، وقد استغل آفيري هذه الفرصة حيث عمل بمستشفى ومعهد روكفيلر حتى تقاعده سنة 1948، وفي أثناء ذلك قام بتجاربه التاريخية على بكتيريا السل، تلك التجارب التي تولى بها تكملة أبحاث العالم فريدريك غريفيث (1879-1941) التي أنجزها هذا الأخير قبل حوالي 15 سنة، والتي بقيت مغمورة إلى حين نقض الغبار عليها وإتمامها من طرف أوزفالد آفيري.

4- أعمال العالم البريطاني فريدريك غريفيث: البوابة الكبرى

إن أعمال فريدريك غريفيث حول بكتيريا السل أعطته مكانة مهمة في

تاريخ العلوم البيولوجية، ذلك لكونها قد شكلت بوابة كبرى مهدت سبيل الاكتشاف لمن جاء بعده لا سيما أوزفالد آفيري. وعلى غرار العديد من العلماء والنابعين، فإن غريفيث نفسه لم يكن يدرك صدى ومكانة أعماله حتى وفاته.

لقد عاش هذا العالم حياة الظل حتى أن المؤرخين لم يكتثروا لتفاصيل حياته ويحوم الشك حول تاريخ ولادته الذي يتراوح بين سنتي 1877 و 1881. كان مسقط رأسه ودراسته - حتى تخرجه من الجامعة - بمدينة ليفربول (Liverpool) الانجليزية، ثم التحق بالعمل انطلاقا من سنة 1901 بمواقع مختلفة: "مختبر تومسون ياتس" (Laboratory Thomson Yates)، فإلبيطة الملكية لمقاومة السل (Royal Commission of Tuberculosis)، ومن ثم وزارة الصحة للمملكة المتحدة.

توصل غريفيث الى تنقية فصليتين من بكتيريا السل (*Diplococcus pneumoniae*):

- الفصيلة R (Rough) التي تمتاز بمظهر خشن.

- الفصيلة S (Smooth) التي تمتاز بمظهر أملس.

يعود المظهر الاملس للفصيلة S الى وجود كبسولة سكرية (Capsule polysaccharidique) لا يوجد لها مثيل لدى الفصيلة R، ولاحظ غريفيث أن وجود الكبسولة السكرية لدى الفصيلة S لا يهبها مظهرا أملسا فحسب، وانما يجعل منها قاتلة على عكس الفصيلة R التي لا تسبب الموت عند حقنها لأحد الفئران.

أجرى غريفيث سلسلة التجارب الأربعة التالية :

● التجربة 1 : عند حقن بكتيريا حية من الفصيلة S للفأر، يموت هذا الأخير ويكشف تحليل دم الجثة عن وجود بكتيريا حية من الفصيلة S، مما يعني أن هذه الأخيرة قد سببت موت الحيوان بتكاثرها داخل جسمه.

● التجربة 2 : عند حقن بكتيريا حية من الفصيلة R للفأر، يبقى هذا الأخير على قيد الحياة ويكشف تحليل دم الحيوان عن خلوه أي بكتيريا، مما يعني بأن فصيلة R غير ضارة وبإمكان جسم الحيوان القضاء عليها.

● التجربة 3 : عند حقن بكتيريا من فصيلة S ميتة (تم تدمير كبسولتها بفعل الحرارة)، يظل الفأر على قيد الحياة ويظل دمه خالياً من البكتيريا، مما يفيد بأن البكتيريا الميتة لا يمكنها التكاثر داخل جسم الحيوان وبالتالي لا تتسبب بموته.

● التجربة 4 : تعد هذه التجربة هي الأهم والتجربة المفتاح في سلسلة التجارب، وفيها يتم حقن الفأر بمزيج من بكتيريا (S ميتة + R حية)، وقد أتت نتيجة هذه التجربة مغايرة للمنتوق: فرغم أن بكتيريا S الميتة لوحدها غير مميتة (حسب التجربة 3) وكذلك الشأن بالنسبة لبكتيريا R الحية لوحدها (حسب التجربة 2)، فإن مزجهما معا يتسبب في موت الفأر مع ظهور بكتيريا S حية داخل الجثة.

● النقاش : على عكس التجارب الثلاثة الأولى التي تعد نتائجها

متوقعة، فإن نتيجة التجربة الرابعة تعتبر لغزا حقيقيا فظهور بكتيريا S حية داخل الجثة لا يمكن أن يأتي من فراغ، كما أن بكتيريا S التي تم حقنها ضمن المزيج لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تعود للحياة ثانية والاحتمال (Hypothèse) الوحيد الذي يمكن تقديمه يتمثل في وجود "عامل محول" (Principe transformant) انتقل من بكتيريا S الميتة نحو بكتيريا R الحية بحيث اكتسبت هذه الأخيرة كبسولة سكرية وصارت عبارة عن بكتيريا S حية جديدة.

لقد اكتفى غريفيث بصياغة هذا الاحتمال دون الكشف عن طبيعة العامل المحول ونشر نتيجة بحثه في مقال نشر سنة 1928 ولكنه لم يلاق حينئذ صدى كبيرا.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

5- أوزفالد ثيودور آفيري يقتفي أثر غريفيث ويكشف سر العامل المحول

اهتم آفيري بنتيجة التجربة 4 من سلسلة تجارب غريفيث وتساءل عن طبيعة ذلك العامل الذي يمكنه تغيير المعلومة الوراثية بحيث تتحول بكتيريا R غير مميتة الى بكتيريا S مميتة.

ترى أي طبيعة مادية لذلك العامل؟

أهو ذو طبيعة سكرية (glucidique)، دهنية (lipidique)، بروتينية (Protéique)؟

وللإجابة على هذه التساؤلات العلمية أجرى آفيري رفقة معاونيه

كولين ماك ليود (Colin McLeod) وماكلين ماك كاري (Maclyn McCarty) سلسلة التجارب التالية:

- التجربة أ: يحقن فأر بمزيج من بكتيريا (S ميتة بالحرارة ومتروعة البروتينات + R حية) وينتج عن ذلك موت الفأر مما يفيد بأن العامل المحول ليس ذا طبيعة بروتينية.
- التجربة ب: يحقن فأر بمزيج من بكتيريا (S ميتة بالحرارة ومتروعة الدهون + R حية) وينتج عن ذلك موت الفأر مما يعني بأن العامل المحول ليس ذا طبيعة دهنية.
- التجربة ج: يحقن فأر بمزيج من بكتيريا (S ميتة بالحرارة ومتروعة السكريات + R حية) وينتج عن ذلك موت الفأر مما يعني أن العامل المحول ليس ذا طبيعة سكرية.
- التجربة د: يحقن فأر بمزيج من بكتيريا (S الميتة بالحرارة ومتروعة الـ ADN + R حية) وينتج عن ذلك بقاء الفأر على قيد الحياة مما يعني أن العامل المحول قد زال بإزالة عنصر الـ ADN. إذن العامل القادر على تغيير المعلومة الوراثية ليس سوى الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين (ADN) وهو بالتالي المحمل المادي للمعلومة الوراثية.

6- صعوبة تقبل كون الـ ADN يمثل محمل المعلومة الوراثية، من طرف المجتمع العلمي

على الرغم من دقة تجارب آفيري ووضوح نتائجها، فإن المجتمع العلمي

قابل كل ذلك بشك وريبة كبيرين، ذلك لاعتقاد الكثير من العلماء ان جزئ الADN يمتاز ببساطة تركيبية لا تجعل منه موهلا لايواء معلومة وراثية شديدة التعقيد.

و هكذا فقد ذهب في ظن الكثيرين منهم ان نتائج آفيري المذهلة قد تكون حدثت بمفعول تلوث أثناء اجراء التجارب. وعلى العكس من هؤلاء، فان قلة من العلماء تفتنت في الحال لأهمية ووقع أعمال آفيري وحاولوا متابعتها ومن أبرزهم العالم "شارغاف" (Chargaff)، الذي تخصص له الجزء القادم والخامس من مسلسل تاريخ علم الوراثة.

7- أوزفالد ثيودور آفيري ونهاية الرحلة

بعد تقاعده من مستشفى ومعهد روكفيلر في العام 1948، انتقل آفيري الى مدينة ناشفيل (Nashville) حيث أقام الى جانب شقيقه، ورغم عديد العروض المقدمة اليه من أجل مواصلة العمل بميدان البحث فقد رفضها، مفضلاً نمط حياة على الطريقة الريفية، مستحماً رياضتي المشي والصيد البحري.

فارق آفيري الحياة في 02 فيفري 1955، اصراراً مع سرطان الكبد. ويجدر التنويه الى أن الشعب الامريكي قد خلد عالمه الكبير باطلاق اسمه على فوهة بركان موجود على سطح القمر. أليست تلك طريقة مبتكرة لتكريم عالم عظيم من شعب عرف سبيله الى الرقي؟

* باحث ومد رس جامعي في اختصاص علم الوراثة (المعهد العالي

للبيوتكنولوجيا بياجة

البريد الإلكتروني:

الإهداء

إلى روح فقيده علم الوراثة الذي غادرنا مؤخرا (أفريل 2008) الأستاذ

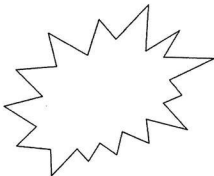
محمد المراكشي:

- رئيس مخبر الوراثة الجزيئية والمناعة والبيوتكنولوجيا (كلية العلوم بتونس)
- رئيس الجمعية التونسية للعلوم البيولوجية
- أستاذ علم الوراثة بكلية العلوم بتونس

المصادر والمراجع :

- Avery O.T. , McLeod C.M. and McCarty M. (1944): Introduction of transformation by a desoxyribonucleic acid fraction isolated from *Pneumococcus* Type III. J. Exp. Med. 79 (137 – 158).

<http://www.inrp.fr/biotic/genetic/html/histoire/htm> •



جيولوجيا البلاد التونسية في حلقات

تاريخ تونس الجيولوجي

(الجزء الأول)

الباحث : أحمد المرزوقي

مقدمة :

إن الموقع والمكانة التي تحظى بها البلاد التونسية، جعل منها قبلة للعديد من الباحثين الجيولوجيين وذلك منذ القرن التاسع عشر حيث توالى وتراكمت النتائج التي تهتم بـجيولوجيا البلاد التونسية، غير أن كتاباتها بلغات أجنبية ونشرها في مجلات مختصة حال دون تطوع العامة عليها لذلك رأينا نفرض الغبار عن هذه النتائج لنعيد نشرها بلغة عربية سهلة لكي الأغلبية من التطلع عليها. وسنعمل من خلال هذا البحث على التعرض للأهم المحطات التي والاستنتاجات جاهدتين قدر الإمكان على أن ننقل الأحداث والتسميات معربة لتقريب الصور وتبسيطها للقارئ. سنركز في البداية انطلاقا من هذه الورقات، على أهم الاكتشافات الجيولوجية وعلى أقطاب هذا العلم الذين عملوا في هذا الحقل سواء كانوا أجنبيا أو تونسيين معتمدين في ذلك أساسا على ما نشره الجيولوجي، بيار فيليكس بيرولي "Pierre Félix BUROLLET" وذلك سنة 2000 في وثيقة نشرها الديوان القومي للمناجم، أحصيت فيها أهم الانجازات الجيولوجية في تونس منذ القرن الثامن عشر.

شيء من التاريخ:

ما قبل معاهدة باردو 1881:

لدراسة التاريخ الجيولوجي للبلاد التونسية لابد أن ننوه ببعض الأسماء التي نحتت على حجر الأساس لهذا العلم، لكن من الناحية العلمية كانت هناك أعمال جيولوجية جدية لا زالت تعتبر إلى حد يومنا هذا مبدأ للدراسات الجيولوجية في جميع اختصاصاتها.

كتب العالم الجيولوجي الفرنسي بيار فيليكس بيرولي "Pierre Félix BUROLLET" أن البلاد التونسية شددت اهتمام القدامى من الجغرافيين اليونان واللاتينيين أمثال هيرودوت "Hérodote" بالرغم من أن علم الجيولوجيا لم يكن معروفا آنذاك، ثم جاء الرومان الذين برعوا في التنقيب عن المناجم حيث استغلوا جبل الرصاص وكذلك المرمر النوميدي الذي كان يصدر لروما كما برعوا في تصريف المياه السطحية واستغلالها.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

خلال القرن التاسع ميلادي وبدخول شمال افريقيا عهدها الإسلامي، برع بعض المسلمين في هذا الميدان أمثال ابن خلدون والإدريسي واليعقوبي في وصفهم لمناجم بين تونس والجزائر.

و قد كانت أول رحلة علمية إلى تونس، سنة 1725 بقيادة الفرنسيين "Des fontaines et Peyssoul" الذين اختصا في دراسة الصخور والمناجم والمقاطع الحجرية.

و قد بلغ إعجاب الزائرين لتونس ودارسيها في هذا المجال، درجة كبيرة مما جعلهم يكتبون إلى ملوكهم واصفين ما شاهدوهم. ونذكر كمثال

لذلك لا للحصر ما كتبه العالم "Hebenstreit" إلى ملك بولونيا، عن رحلته العلمية سنة 1838.

أما في مجال الهيدروجيولوجيا فقد درست العيون ذات المياه الساخنة بالبلاد التونسية وقد برع في ذلك الطبيب الفرنسي "Guyon" الذي أنهى دراسته سنة 1864.

عرفت سنة 1880، إضافة اسم جديد إلى هذه القائمة وهو الأستاذ الايطالي "G.Perpetna" الذي قام بدراسة جغرافية البلاد التونسية واصفا الشواطئ، المرتفعات، التضاريس، الجزر والسبخ، حتى أنه كان يظن أن جبل بوقرني (حمام الأنف)، بركانا ميتا، ثم وفي سنة 1881 قام بدراسة مرمر شمتو (ولاية جندوبة)، مناجم الحديد بالجريصة (ولاية الكاف) وبعض المواقع الرصاصية بجبل الرصاص (ولاية نابل). كما شملت دراسته للعيون الاستشفائية بقريص والجديدي (ولاية نابل) وحمام الأنف (ولاية بن عروس) وبقفصة ونقطة وسيطة.

ما بعد معاهدة باردو 1881:

بعد هذه الرحلات العلمية للبلاد التونسية تأكد أنها تزخر بالعديد من الموارد الطبيعية، فكانت من بين الأسباب التي عجلت بمعاهدة باردو سنة 1881 التي رسخت الاستعمار الفرنسي أو ما يسمى بعهد الحماية. و نذكر أنه خلال هذه الفترة نشط عالم النباتات "Michel Doumet Andanson" و "Philippe Thomas" و "G. le Mesle" و "Georges Rolland" و "Albert Gaudry" الذين اهتموا بتونس الوسطى خاصة

جبل زغوان، ومكثر والقيروان.

أما الباحث فيليب توماس "Philippe Thomas" الذي أحدث له نصبا تذكاريًا في مدينة صفاقس بعد موته، فقد كان طبيبًا يطيروا مرافقًا للجيش الفرنسي وكان في الآن نفسه محبًا للجيولوجيا وكان من اكتشافاته سنة 1885، مناجم الفسفاط في قفصة والمتلوي وأم العرايس والرديف، هذه المدينة التي تحتضن منجمًا نفيسًا ظل ولازال يغدق ويعم بالخير الكثير على كامل تراب الجمهورية وحتى خارج الوطن.

تميزت سنة 1892 بحادث هام وهو إنشاء أول خريطة جيولوجية للبلاد التونسية بسلم 1/800000 تحت إشراف المهندس المنجمي "Francis Aubert".

و في سنة 1910 توفي مكتشف فسفاط قفصة "Philippe Thomas" فتولى الجيولوجي اليفاعي "Léon Pervinquière" المهمة حيث قام بجمع النتائج الجيولوجية المتحصل عليها وكان النقاش حول بعض الأحافير التي تم العثور عليها في مناجم فسفاط قفصة والتي تنتمي إلى صنف الزواحف المنقرضة (الدينصورات). وللأمانة فإننا لا بد بأن نشيد بالعمل الجبار الذي قام به هذا الباحث لفائدة الجيولوجيا التونسية. ولد برفانكيار سنة 1873 بفرنسا وتحصل على الإجازة في العلوم سنة 1893 وأصبح يشتغل كتقنيًا في أحد مخابر البحث الجيولوجي وكان شغوفًا بعلم الأحافير فاختار أن يسافر للجنوب التونسي سنة 1896 . كتف هذا العالم من زيارته الميدانية على القدمين أو على ظهور الدواب بصفة متواصلة طيلة عشرين شهرًا متتاليين مغطيا بذلك مساحة تقدر بـ

16000 كم². كما قام برسم خريطة جيولوجية لتونس الوسطى بسلم 1/200000 التي مازال إلى حد الآن مرجعا ثمينيا للباحثين التونسيين في دراساتهم الجيولوجية. وقد اكتشف أثناء مهمته الرامية لتحديد الحدود التونسية الليبية، في زيارة إلى الجنوب التونسي المزيد من الأحافير الجديدة التي أثرت المعارف السابق في هذا المجال نذكر منها تلك التي تنتمي إلى شعبة الرخويات مثل رأسيات القدم (Céphalopodes) ومعديات الأرجل (Gastéropodes) وصفيحيات الغلاصم (Lamellibranches)، كما اهتم هذا الرجل الهمام بالطبقات الرسوبية التي تعود الزمن الجيولوجي الرباعي وذلك بدراسة شواطئ صفاقس والمنستير ثم توفي بالجنوب التونسي سنة 1913 عن سن تناهز الأربعين سنة.

أما سنة 1912، فقد عرفت بداية البحث عن النفط بجلب انتباه الجيولوجيين الفرنسيين مثال "Luis Berthron" وذلك في مناطق عين هلال، ماطر، أوتيك (بترت)، تيرسق والسلوقية (باجة).

أكد "برتران" أن الرسوبيات التي تنتمي إلى حقبة "الترياس" لعبت دورا هاما في انفصال الغطاء الرسوبي عن قاعدته في الشمال التونسي، هذه الوضعية التكتونية* لها دلالة هامة في تحديد المواقع المنجمية بالبلاد التونسية.

الجيولوجيا التونسية ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية:

شهدت الجيولوجيا في تونس تطورا ملحوظا في هذه الفترة يتمثل في

تنوع وتعدد الاختصاصات مثل علم الهيدروجيولوجيا (المياه الباطنية) وعلم البيدولوجيا (التربة)، فتنوعت بذلك وحدات البحث.

و قد تمت سنة 1921، دعوة الجيولوجي الفرنسي "مارسال سولينياك" Marcel Solignac إلى البلاد التونسية للعمل في ميدان الخرائط الجيولوجية، وقد أنجز هذا الأخير ما يقارب العشرين خريطة في مختلف أنحاء البلاد بسلم 1/200000 بالتعاون مع العديد من الجيولوجيين الذين تركوا آثارهم في الجيولوجيا التونسية نذكر منهم "P.Volpeliere" و "G.P.Lancho", "H.Scholler", "E.Berkaloff" الذي اكتشف موقعا من أهم المواقع الجيولوجية في العالم والوحيد في القارة الإفريقية وهو جبل "طبقة" بولاية تطاوين والذي يتكون من رسوبيات بحرية تعود إلى عصر "البرميان". والطريف هنا هي القصة التي رواها أحد الباحثين عن كيفية اكتشاف الزمن الجيولوجي وطبيعة الرسوبيات في هذا الجبل، حيث هو تمت استضافة "بركالوف" للغداء عند أحد متساكني المنطقة. وبينما هو بصدد تناول لحم أرنب بري، إذ أوشكت أن تكسر أسنانه قطعة صخرية، فاستغرب لوجودها وعند سؤاله أخبره الصياد أنه كان يستعملها كبديل لرصاص للصيد. فاكتشف بعد ذلك "بركالوف" أن هذه القطعة هي أحفور لكائن حي بحري يعود إلى العصر الجيولوجي الأولي (أي ما يقارب 300 مليون سنة). كما نذكر أن جبل الطبقة هو الموقع الجيولوجي الوحيد في إفريقيا الذي أثبت فيه وجود "البرميان" البحري.

أسس الجيولوجي "باركلوف" E.Berkaloff سنة 1929 مكتب دراسات الموارد المائية، وبقي يديره إلى أن غادر البلاد التونسية سنة 1959. كما قام صحبة الجيولوجي "هنري شولر" بأنجاز منظومة بيانية يمكن من خلالها استنتاج سير المياه الجوفية وصلاحياتها من خلال تركيبها الكيميائية. وخلال هذه الفترة قاما بتأطير العديد من التونسيين ومن أولهم الهادي بسباس وعبد الحميد الجلولي.

وفي ميدان البحث عن النفط، تم سنة 1931، إنشاء نقابة الدراسات والبحوث النفطية (SERPT) بالتعاون مع الشركة الفرنسية للنفط، فتركزت الحفريات والبحوث في الشمال التونسي إلى أن قتل مديرها أثناء الحرب وهو في طريقه إلى منطقة سيدي بوزيد فتوقف بذلك نشاطها.

ARCHIVE

من الحرب العالمية الثانية حتى الاستقلال <http://ArchivePage>

تميزت هذه الفترة بتركيز ديوان الخدمات الجيولوجية بتونس وبرز العديد من الباحثين الجيولوجيين التونسيين، وانطلاقا من سنة 1945، تم تعيين فريق جديد من الجيولوجيين من أبرزهم G.Castany "كاستاني" و R.Muller Feuga "ميلر فوفا" و J.Pimenta "ييمنتا". ثم حل بتونس سنة 1946 الجيولوجي الهمام P.F.Burollet "بيرولي" الذي قدم الكثير للجيولوجيا التونسية. فتعددت الأنشطة الجيولوجية وأنجزت العديد من الخرائط سلم 50000/1 وتم إنجاز العديد من الدراسات الهيدروجيولوجية والسدود مثل سد وادي ملاق بنير (ولاية الكاف) وقد تم كذلك مراقبة

المناجم.

وقد برز اسم السيد علي عزوز الذي يعتبر من أوائل الجيولوجيين التونسيين وكذلك السيد عز الدين العباسي والظاهر عميرة. واصل الجيولوجي "كاستاني" أعمال "سولينياك" و"برفانكيار" وقد لمع اسمه بدراسة الأطلس التونسي الشرقي ثم انكب على الدراسات الهيدروجيولوجية وقام بتأسيس الجمعية التونسية للعلوم الطبيعية سنة 1946.

و المثير للانتباه هو أن العديد من هؤلاء الجيولوجيين كانوا متعددي الاختصاصات مثال الجيولوجي M.Arnould "أرنو" وزوجته "سوزان" الذين كانت لهما اهتمامات ودراسات في مجال النباتات والحيوانات وتاريخ الإنسان، بالإضافة إلى اختصاص الجيولوجيا. وهو ما يدل على عدم تخصص العقل وقدرته الفائقة على اكتساح كل المجالات العرفانية. بالرغم من الظروف المادية والاقتصادية القاسية آنذاك، فإن جميع الباحثين الميدانيين كانوا في تحد كبير لفك رموز ما تكتنزه الصخور والتكوينات الرسوبية بالبلاد التونسية، فممنهم من قضى نحبه (برفانكيار) ومنهم من فقد بصره (أتيان ديمون) وما حادو عن طريق العلم والبحث والاستكشاف. كما لا ننسى دور المواطن التونسي البسيط الذي احتضن بفطرته النقية والذي كان يعظم ويكبر كل من كان يعمل في ميدان الجيولوجيا سواء كان تونسيا أو أجنبيا.

وفي سنة، 1947 تم استكشاف الغاز في الوطن القبلي ثم وفي سنة 1950

دخلت البلاد التونسية شركة "شال" للتنقيب عن النفط والغاز في منطقتي الساحل والقيروان وكان André Jauzein "أندري جوزان" من أبرز الباحثين في المنطقة الفاصلة بين تونس ومكثر.

الجيولوجيا التونسية بعد الاستقلال (1956 - 1976):

شهدت هذه الفترة تغيرات في النشاط الجيولوجي التونسي، فقد تم بعث هياكل جديدة تهتم بالجيولوجيا وأصبحت الأولوية المطلقة للتعليم، فتضاعفت النشريات العلمية الجيولوجية بإشراف الباحثين الأجانب الذين سبق ذكرهم. ثم إنشاء الجامعات والمدارس العليا والدواوين القومية وبدأت عودة الجيولوجيين الأجانب إلى أوطانهم مثال "كاستاني". فخلف من بعدهم خلف من الجيولوجيين التونسيين الذين امتازوا بالحيوية والنشاط أمثال صلاح الدين الشريف، أحمد خوجة، محسن حشيشة، فاروق كشوك ولوشيا ممي، الطيب السوسي والبيجاني اللجمي... تحت إشراف السيد أحمد عزوز. ونشيد بالدور الذي قامت به السيدة لوشيا ممي في دراسة وحفظ العديد من العينات من الأحافير المتأتية من كامل تراب الجمهورية والتي لها دلالات عدة حول الزمن الجيولوجي للطبقات الرسوبية وظروف تكوينها، ولا زالت إلى حد الآن تشرف على المتحف الجيولوجي بالديوان القومي للمناجم. وعرفت سنة 1959 بناء كلية العلوم بتونس وكانت أول رسالة دكتوراه في مادة الجيولوجيا تمت مناقشتها هي للأستاذ محمد الفقيه سنة 1960 الذي درس فيما بعد في نفس الكلية وأسس فيها قسم الجيولوجيا سنة

1971 صحبة الأستاذ عبد الحميد الجلولي.

سنة 1963 ناقش السيد الحبيب الزبيدي رسالة الدكتوراه حول المياه الباطنية لجبل برقو. ثم توالى المناقشات مثل السيد نور الدين بن عياد الذي اهتم بدراسة الجيولوجيا بمنطقة سليانة والسررس والسيد محمد المنصف التركي الذي أنجز خارطة جيولوجية لجبل برقو والسررج سنة 1975 وفي نفس السنة اشتغل السيد علي مرابط بالمحور شمال - جنوب وكذلك السيد ساسي ساسي الذي اشتغل بعلم الترسيب في سبخ الوطن القبلي. كما اشتغل السيد فؤاد الزرقوني ببنية الطبقات الرسوبية في الشمال ثم في الجنوب التونسي سنة 1975 كما شغل منصب مدير الديوان القومي للمناجم عدة سنوات، ثم أصبح بعد ذلك رئيسا لمخبر علوم البنية الجيولوجية بكلية العلوم بتونس.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

فترة تفتح البراعم والنضج، ما بين 1977 و1997:

لقد أثمرت بمجهودات الجيولوجيين السابقين وأينعت ببروز ثلة من الجيولوجيين الأكفاء وذلك في اختصاصات عديدة فتضاعفت بذلك الخرائط الجيولوجية المنجزة حسب سلم 1/50000 من الجنوب إلى الشمال التونسي. فظهرت اختصاصات جديدة في الجيولوجيا التطبيقية مثل المواد الإنشائية، الهندسة المدنية وحماية البيئة، فأصبحت تونس بذلك منارة جيولوجية أنجزت فيها العديد من المؤتمرات العلمية العالمية والوطنية.

كما تم تكتيف الأعمال الميدانية لإكمال الخرائط في الجنوب ثم في الشمال التونسي وذلك بتنسيق بين الديوان القومي للمناجم والأساتذة الجامعيين وكان من أبرزهم السيد علي مرابط والسيد فؤاد الزرقوني.

سنة 1989، كانت سنة يتمت فيها الجيولوجيا التونسية، تحديدا يوم 28 ماي، بفقدان السيد علي عزوز الذي وافاه الأجل اثر نوبة قلبية، تاركا وراءه عملا وصدقا ووفاء لهذا الوطن.

فجميع الأعمال الجيولوجية الأكاديمية منها أو في مجال المناجم والتنقيب عن النفط، هي تواصل للأعمال والبحوث السابقة مع اضافة واستعمال بعض البرمجيات الحديثة، ولكن يبقى العمل الميداني في الجيولوجيا هو الأساس.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

الخاتمة:

أتمنى أن يكون هذا الجزء الأول من تاريخ الجيولوجيا في تونس، قد شد انتباه القارئ، فهي كما شبهها "بيرولي"، مغامرة ممتعة يتشرف بمشاركتها فيها طيلة 50 سنة.

وما زالت حقول المعرفة تنتظر الشباب اليافع الباحث عن الحقيقة الجيولوجية للكشف عن أسرار هذه الطبيعة. وتبقى عملية تعريب بعض المصطلحات العلمية من العوائق التي تعطل تبسيط المعلومة للقارئ الغير متخصص في هذا الميدان، فلعل الجزء الثاني الذي سنتحدث فيه عن كيفية تكون وترسب تراب البلاد التونسية، يكون أكثر مرونة وشفافية.



2 - السيد لويس برتران و عائلته، 1917

1 - السيد فيليب توماس

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



3 - السيد بيروني إلى اليمين

وسانفيلد، تاجروين 1953



4 - من اليسار إلى اليمين: السيد عزوز، السيد سولستياك، السيدة سولستياك، موزات أرنو، الطبيب السوسي، السيد أرنو، السيد ديمون و بيرولي، تونس 1972



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



5 - السيد علي عزوز و حرمه و يتوسطهما، السيد مارسال سولستياك



6 - فريق من ديوان المتاحف
في جبل قراة، 1980: من
اليسار إلى اليمين: الطيب
الدالي، السيد الدلاجي،
السيد الجدوي، مصطفى
بالحاج علي و لوشيا ممي.



7 - أول دفعة من
المهندسين سنة
1972-1973 :

في الأعلى و من
اليسار إلى اليمين:
علي بن حليمة،
الشاذلي بن حمزة،
فرحات بدروشي،

نور الدين بن عياد، و محمد الققية، في الصف الثاني و من اليسار: تيلوس، فزاد الزرقوني، دليسة
التركي و محمد التركي، و في الصف الأول و من اليسار: الحبيب بن سالم، محمد الغري و العيدي
بن سعيد



8- الساحل
1998: من

اليسار إلى اليمين:
محمد الغامشي، مختار
الفخراوي، السيد
كمون، بيروني،
الشاذلي ربيعة،

محمد القعيد و مصطفى جويرو.

نصيحة

شعر : عمر عبدالله الكثراري

نضب الوقود من السراج فخله

وأطلب إلى القمر البخيل ضياء

فعساه يطلع بعد طول غيابه

وعساه يخرق سحب الدنياه

أكتب له مرغم الجفاء رسالة

شعرا يلين ثمنها وجفاء

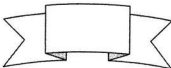
<http://ArchiveVeBeta.Sakhril.com>

فالبدر كان ولا يزال مرافقا

للشعر لا يستهجن الشعراء

وإذا أشاح عن الكتاب بوجهه

فالجدب أقبل والترحل جا



.....

شعر : فاطمة البراري

طلبت مني الزواج
و أنا من تزوجتك قبل مخاضك
ومد كنت في بطن أمي
وقبل مخاض شعري
أنا من رسمتك في كل قصص الحب
ونحتك في صدري كي لا تسرق مني و من شرايبي
أنا من ابحت عنك منذ بدء السنين
أنا من أدعو الله في كل ركعة لألقاك
عشقتك قبل وجود الحب و قبل زرع الورود
عشقتك و لم أعلمك
فحقوا سيدي افتح قلبك لتخوين
أنا مرهقة جدا

ARCHIVE
<http://Archivus.org/akhril.com>

فقبلي سيدي لتحيني
في بلد النور أضاء حيي
في بلد النور أتزوج بعيدا عن الظلمات
بعيدا عن كل تخميناتي
بعيدا عن التفاهات
سأظل أحبك رغم بعد المسافات
بعيدا عن الطبقات
بعيدا.....بعيدا.....بعيدا.....
بعيدا عن بلد ولد الحب و ترعرع في الظلمات
أنا مرهقة جدا سيدي.....
فبعذك أفني حياتي

حين ألقاك

شعر : جميلة الشريف

غدا حين ألقاك
سنعرف لماذا أمرتجف عند لقاءك
غدا حين تلقاني
سترغد الصخور في كل الأوطان
معلنة إيقاف حالة الكتمان
سنبسل المياه المنجمدة في الورد بأن
معلنة ثورة على الأحزان
غدا حين نلتقي سنغد الأطياف
ويعبق الورد بعطره الفنان
سترقص العصافير فوق الأغصان
وتتعاقد الفراشات فوق الأزهار
فرحاً بقاءك كاد يدفن في سجل النسيان

قصيدة حب

شعر : عمار العوني

البين يفتح خفق القلب والنظر
فما اللقاء سوى أمنية العسر
وكم بلونا صروف الدهر في عن
أقسى المحون تنائي الحب في العسر
يا من وقفت على بابي إلى السحر
أقبلهم الشوق أضواني إلى سحر
فإن سألت العين عن حال الفنى مرق
والحال لا ريب قد يغني عن الخبر
والسند والأكمل الموصول بعض صدى
للين بعد تنامي الظن والهجر
فكل حب إذا نال الفنى جرح
فكيف إن التقى الجر حان في السهر
والشعر أفضن جرح فكيف إذا
أخلاه حب بقلب هامر منكسر

والشعر والحب إن شبا معا بأسى
صارا من الأوجاع حتى آخى العرس
فعدت تبسمل في نغم الصباح يو
مر مشرق بسنا الأنوار كاللدر
ومن شغفت لحسن في العيون بدلا
كالسهم إذ يأخذ المغدور في النظر
وعند أزهر زهر اللوز ميسا
وصار يكبر كالاحلام في نظري
وعند راقى لقلبي وردة خفت
مروحي لها خفتان الطير في المطر
أنشدت كل قصيدة في حقول الصبا
فاهتز طير على الأغصان في الشجر
ومن دمائي أضأت الليل فاشعلت
في افقه شهب في غيبة القمر

سلوى

شعر : علي العلي

(بغداد)

شفناك والشیطان مذ أغوی يتلافیان المن والسلوی
نجوی لأنهار بأفلة تساب فی مرقاقتها النجوی
وتث فی صمت النفوس ندى یا لیلها تدمری به لغوا
إن النفوس إذا أضربها ما تکینن ، تناست المحوا

ARCHIVE

<http://archivebeta.sakhril.com>

عفوا لمن لا تعرف العفوا من أرسلت تقاحها دلوا
حسنى خذنى كل فلسفة لمطأطى فأتى كما قوی
دعوى عفيف أمسك الدعوى بشکو وبأسى جث لا جدوى
لا نفع من صبر أنا جزء فالناس من عينيك فی عدوى
وأرى شيوخا في طفولتهم يحسنون لقطعة الحلوى
إن ابن آدم يشكي زما ويرى أمرا ماله كوا
بلوى أبیه إذ تلا حقه من ضلع آدم جاءت البلوى

من أيّ درب أمرّ إليك

شعر : الهادي العثماني

أعلنت عن حبك

منذ عشرين عاما

ومنذ أغنية في الهوى والحنين

بذد ألحائها العنديل

لا صبر لي، كي أظلم حينها

أعالج حزني

وأمرحل عبر الطريق الغريب

غلقت عن نفسي عشرين عاما

وعشرين عاما مضت

كم تضيع الأمانني وبنأى القريب

لا شيء، سيندتي بسحق البكاء

فقد عضنا الدهر عاما فعامر

ولمنا طويلا،

كما ناه من قبلنا العاشقون
 حلمت بك ذات ليل قرأني
 مرافق صدق،
 وأحلامي من ولع أو جنون
 لا شيء سبيلتي بسجيل علينا
 سنبجاز خط النماس قليلا
 سنعب هذا الطريق معا
 إلى موعد بعد ليل حزين
 كمر منع في هواك النحل
 وكم أرهق القلب هذا السكون
 فمن أي درب أمر إليك
 لكي لا يرى جفني الآخر ومن
 أهرب قلبي
 بأعماق أشعاري كي لا أموت
 تغير طعم الحياة غاما
 فحول معنى السكوت كلاما

فتولي : سلاما على الأبرياء.

إذا فظأخاتمنا الشامنون

مرحلت بعيدا ،

فهل تسمعين صهيل الجراح بأعماق مروحي

وهل تفضح الحب عيناك شوقا إلي

لا معنى للحب دونك أنت

لا معنى للعشق دون اعتراف العيون

هل تخسني هكنا شاعرا يشبهك

فيكتب من وحيك البوح حرفا

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

يغني الأمانني

ويشرب حزن المسافات صرفا

إذا غظطرفا ، رمته المنون

تعالى إذا ، أعلمك هذا الغنا. الجميل

تعالى إلى كما أشبهك

نرتب تفاصيل بوح النصول

تعالى ... أحبك هذا المسا.

وهيني القلب دفا حنون

شيء من حتى

شعر : مبروك السيارى

القصيدة الفائزة الأولى في ملتقى زامة للإبداع الأدبي المنتظم

يوم 5 أبريل 2008 بسلطنة

ماذا سنصنع بالكتابة

مرحت تشعل كل أقية العدم

والسادة المتأمرين على الأرائك

يطفئون بريق الطافوس نفس الضبح

مد كان ابشمر

يسعبدون فراشة قلب البلاط ريعها

وذبابته في الرأس ترقص مله شوكتها

وتصرخ : يا لاهته / صنم

هم أغمضوا العين البصيرة عن سراجك

واليد الطولى اشأبت تسبيح وتلهم

وشمر الجراح تحنّات خلف الجراح
خزائن المملوكوت / فردوس الصبا
قسمات ظلك واقفا
قسمات ظلك راشحاً كالموج موصولاً
بطعنة شاطئ
مستشغراً بآلئ الأحزان
منغلاً وميض الفاحش بلا قدم
*** **
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>
يا مسرفاً في الحزن يلفحني برديك
جاهداً حتى يعاتيني على هجر وغمر
ماذا ستصنع بالنقش في الإذانة
والمرأيا تفضح الأهلين والغربا.
والوجه المطارد، ذلك الوجه المشغج جسارة
لم يأنسوا قنديله البادي

تصدع حائط الأعشى
وأفصح من رأي
يا أنت ممطيا براق الشوق
يعز لك الجدار عن الحبيبة
... تستضي بزيتها
كانت سهاؤك تستضي بزيتها
كانت تصب شذى ظفائرها على الأبدان
دفا في خريف الطلع

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

.....

قلت تعود مقتنيا هوى لغة
كانك لم تقتل
وذنرت للأوطان صوما
صائما قد نيك رافعة المضارب
صائما عجناحك المنفى

كأنك لم تقصر

لا تبس

ما أنت في مندق الأوهام

إلا واثق أو معنصر

*** **

تشدو، وفي النفس العليقة جعر "حنى"

تطرق الباب اللئيم فلا تكل منوها

"حنى" ترابط في الصميم وشيكة ثمراها

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

حنى إذا سرت لها أهواء قاطفها

تخطفها المنون ضريبة

وتفرقت في الناس قاب يد وفمر

"حنى" تناوى في البعيد سحيقة شرفاتها

تنسوز الليل الطويل إلى الهزيع

لعل شمسا يخللها القلب

موقفة العرى بناظر أو خاطر أو هدهد في الأفق

طوف يستدل على شمر

"حنى" تناوح بعضها زمنا يؤنن بعضها

جفت مآقي النهر جفت

جف إسفنج القلم

*** **

ماذا صنع بالكتابة

مجنشك الجوع أقباسا لمحبس القرى

وتضيرك الضوضاء واللغو المقيت

يضيرك الركب الثقيل بصفق قمنه

وصف عمانهم الأعراب إذ نزفوا الأسى

وعلى الشمال تسمرت أصفار فكبههم

وصف الانقسام على الصدور رسا

لها وعا ندين بلا شير

العائدون من الفراغ "بلو" و"لم"
يا ظلنا لا تبمس
تلك العروبة ترمني في حضن "ليت"
وتسكن إلى "نعم"
لم يبق شيء غير تسريح الحجارة
في يدي طفل البراكين الدفينة
طفل "يافا" طفل "قانا"
طفل "غزة" و"الجليل" و"طولكرم"
طفل بكل بلدة ينجمت الأسباب
يمسح عن جبين المجاهدين من المهانة صبرهم
والصبر أقرب ما يكون إلى حمم
لك أضلعي في اللجأ أشرعت
لك القلب المحضن مرفأ
لك موطننا لقدم

لك العين البصيرة معبرا

منها فمن إلى حلم

لك منتهى الإقدام: عسكر نصرة وحشم

ألاخذها جميعا وانتقم

يا أيها الطفل انتقم يا أيها الطفل انتقم

*** **

أي مريدك الأعلاء.

خافوا ما يعد الله من شهلاء في الأرحام
<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

خافوا من هدير القول شاهقة ذمراء

خافوا هشير الماء في ذهب الفرات

ودمع دجلة نازلا أبدا على خذ الورق

خافوا الخناجر زجرت

خافوا الأصابع أومضت

وتفجرت شلال أسراب

أبايل الحمى

يا أيها الكفن الموزع في المدى

دائمة من فوهات الأيض العاتي

تسيح كجر حنا الملقى على ناباتنا

مهما نأت هجراتنا

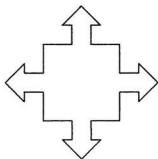
مسوحش لا يلثم

فاضت بنا أقداح ليل تخمي فيه الظلم

سيفنح اللغز العمير غنائما

<http://Archivebeta.Saqr.it.com>

ما شب حن أو توثب في رحمر



الورقة الملعونة

بقلم : محمد بن علي

1- بداية الحلم :

طرق ساعي البريد ذات صباح شتائي أواخر أسبوع حافل بمشاق التنقل في متابعة عمل المؤسسات التربوية بالجهة... ومد رسالة، وسارعت إلى فتحها... كانت تحمل تاريخ السابع والعشرين من شهر جانفي... آه أي تاريخ هذا ؟ ... لم يبق سوى أربعة أيام على بلوغي الخامسة والخمسين سنة... وبلهفة قرأتها بادئا من آخرها... فقد كنت لا أطبق صبرا على قراءة الرسالة من بدايتها... ولا أتحمل مقدماتها... "يطلب منك بنك الإسكان إضافة مبلغ مالي إلى رصيدك أو يعتبر ادخارك لديه ملغى . " ... ورحلت في ثنايا الحلم... منذ عشر سنوات وأنا أجمع المبلغ تلو المبلغ وأنزله في هذا الدفتر الأزرق الذي تسلمته من البنك ذات يوم وأحلم بامتلاك مسكن في المدينة البعيدة، رغم أنه لم تبق سوى خمس سنوات وأحال على التقاعد، فهل تكفي لسداد ديون البنك ؟ وهل يملك الإنسان في أواخر هذا العمر أن يدفع بنفسه في طريق المغامرة ؟ وهل هو قادر على تغيير حياة تمر أيامها رتيبة، والعديد من الأمراض المزمنة قد أخذت تطرق باب هذا الجسد ؟ وكيف

التخلص منها وبعضها تسلل بدون استئذان وأصر على البقاء ؟ ...
 كيف العمل إذن ؟ ... أليس من الأفضل سحب المبلغ من البنك
 والرضى بهذه الحال ؟ أم الاستحابة للطلب ليقى الحلم مشرع
 الأبواب ؟ ...

كانت الرياح الشتائية تعصف خارج مساكن هذه القرية
 الوادعة... وفي رأسي يعصف إعصار يهزني يمينا وشمالا... وضباب
 يلف هذه الجمجمة التي أسكنها أكثر من نصف قرن من بقايا
 إرهاب متواصل يلزمي منذ سنين، وغدا سيكون يوم الأحد، ولا
 يمكن سحب المبلغ المطلوب من مكتب البريد استحابة لما في الرسالة
 الملقاة أمامي، ولا بد من الانتظار إلى يوم الاثنين وهو يوم سوق
 أسبوعية تكتظ فيه الأنهج والطرق وتصبح ملأى بالسلع على
 مختلف أصنافها ولا يمكن المرور بسهولة بينما للوصول إلى مكتب
 البريد... كان يوم الأحد مملا وخانقا للأعصاب والتفكير في سحب
 المبلغ المطلوب والتنقل به إلى المدينة المجاورة هاجس يجثم على
 القلب... وعندما دخلت مكتب البريد لم أجد موطئا لقدم ... فقد
 كان ممتلأ بمن أتوا لقضاء حوائجهم وخاصة من أهل الريف الذين
 يغتنمون هذا اليوم لقضاء شؤونهم والتسوق وخلاص فواتير
 الكهرباء أو سحب حوالات لفائدة المحتاجين ممن اكتظ بهم المكان
 وقد بدا بعضهم كبقايا بشر... وزاحمت حتى وصلت الشباك

الجلاني متجنباً الطواوير ومددت للمشرف صكاً يحمل مبلغ ثمانية آلاف دينار... فتسلمه وبقيت في انتظاره... أما الناس فكانوا منكبين على الشبايك يتزاحمون وتتدافع صفوفهم فتملاً المكان حركة وضجيجاً. أوماً إليّ الموظف من وراء البلور حتى أدخل من الباب الجلاني، وحمدت الله على ذلك وعندما دخلت إلى مكتب جانبي وجدت فيه على طاولة رزما من الأوراق المالية متناثرة والعون يصنفها ثم يعدها ويكدسها... وبقيت أنظر إلى المشهد وكأني أراقب كدسا من الملابس القديمة قد تناثرت في يوم سوق أمام جمهرة من المشتركين الذين يتزاحمون حوله بالمناكب والبائع وسطهم يصبح راقصاً في نشوة غامرة... ليس من عاداتي أن أحصي بمفردي الأموال التي أتسلمها سواء من مكتب البريد أو غيره، فقد كنت أضعها في جيبي وكان من أعطائي إياها يكون قد قدمها لي هدية ينبغي أن أبقى مديناً له بهذا كل حياتي... من أين لي أن أتخلص من هذا الشعور الذي لازمني سنوات عمري... وموظف البريد مازال يحصي الأوراق النقدية بيديه ودون استعمال آلة الإحصاء؟؟؟ ... دخل المكتب ساعي البريد الذي كان يأتيني برسائلي إلى مسكني وبما أن لي به علاقة وطيدة الأيام والكلمات الطيبة التي تتبادلها فقد قدم لي ظرفاً كبيراً استغله العون أمامي ليضع فيه الرزم التي كدسها فوق بعضها وطلبت منه أن يغلق الظرف،

وبادرت بالخروج من زحمة المكان..

2- في تيار العاصفة :

عندما أوقفت السيارة بجانب كشك لبيع السحائر خرج صاحبه ليسألني إن كنت سأغيب كثيرا، وبما أن ترزيل هذا المبلغ المالي لا يتطلب وقتا طويلا... فقد سمح لي بإبقاء السيارة حيث هي ولوقت وجيز... وأسرعت فدخلت البنك ومددت الدفتر للمسؤولة فاضافت فوائض السنة الماضية، وسألني ما الذي سأزله بهذا الدفتر ؟؟؟ فأجبته بدون تردد : "ثمانية آلاف دينار..." ... نزلتها على الدفتر وأشارت إلى مكتب بلوري يجلس فيه عون يتلقى الأموال... مددت له الظرف المكتن، ففتحه وأخذ ينظم الأوراق النقدية في أكداش حسب المبلغ... وأحال الأوراق من فئة العشر دینارات على آلة التثبيت من سلامة النقود... ونهت في ثنایا الحلم راحلا في عالم وردي اللون سأجد نفسي فيه... فجأة أحدثت الآلة صريرا غير عادي... نظر إليّ العون من خلال البلور وقال "هناك ثلاث أوراق نقدية مزيفة..." ... لم أعر الأمر أهمية لأنني لم أعش هذه الحالة أبدا في حياتي، ونظرت إليه فاغمس في تمرير الأوراق الثلاثة على الآلة من جديد... وأعادت الآلة صريرها الملعون عند مرور إحداها... ورفع العون رأسه إلي وكأنه قد ظفر بصيد بعد طول عناء... والتفت إلى رئيسه الذي كان يمر من ورائه وساره بالأمر وأنا

أحرق فيهما بذهول مستغرباً أن يكون الأمر كذلك، ونظر إليّ رئيسه نظرة خاطفة وأمرني بالتحول إلى مكتبه... وعندما دخلت وأغلقت الباب نظر إليّ وكأنه صقر ينقض على فريسة... لقد كان حاد البصر ذا أنف كمنقار طائر وأنا عصفور صغير أمامه قد بلله المطر والدهشة والمفاجأة... وأشرع في وجهي ورقة نقدية وقال: "هذه لك... إنها مزيفة..." .. وأبعد عني الورقة خشية أن أختطفها منه، واختلط الأمر أمامي وكيف لي أن أفهم الأمر وأنا الذي حملت إلى هذا البنك ظرفاً مليئاً بالأوراق النقدية من مكتب البريد دون سواه والظرف كان مغلقاً فكيف تسلمت إليه هذه الورقة اللعينة... وفي لحظة جادة أمرتني قال لي: "انتظر خارج المكتب..." .. وفي محاولة يائسة طلبت منه إن بالإمكان أن أهتمف إلى أخي... فرفض في كبرياء وصلف واستعلاء... وأمام باب المكتب بقيت أفكر في الأمر متحيراً... آه لو أمسك به في يوم من الأيام خارج المكتب فسأنتقم منه لنفسه وأشدّه من منقاره الطويل وسأحطمه... وأقبل ثلاثة أعوان أمن سريون عرفت واحدا منهم... ونظر إليّ وهو يدخل المكتب قائلاً: "هو أنت؟" وكأني بحرم في قفص الاتهام" فقلت: نعم هو أنا وما الغرابة في ذلك؟ ... وبعد لحظات كأنها دهر خرجوا من مكتب المدير وطلبوا مني أن أصحبهم... ووضعوني في وسطهم حتى لا أفر من قبضتهم.. وقال

لي ثالثهم الذي كان يحشي ورائي ساعرا : "ستبقى عندنا أياما في الحجز"... يا للعجب يصبح الإنسان في لحظات متهما وبجرما وفي قصص لا يستطيع الخروج منه... وجلست أمام عون الأمن وهو يكتب شهادة عون البنك الذي وجد الورقة المزيفة، وكان مزهوا وهو يدلي بشهادته واصفا الورقة النقدية التي عثر عليها بين الأوراق الأخرى قائلا متبجحا وكأنه سيجازي فوريا بوسام من النوع الرفيع "لأن الورقة النقدية من النوع الجديد وقد قدمها حريف اسمه..." وأمضى على شهادته وخرج بعد أن تركني لمصري المجهول... طلب مني عون الأمن وثائق الهوية وإعادة القصة من بدايتها وبعد أن انتهى من تحرير المحضر الذي أمضيت عليه سألته عن مصير هذا المشكل فقال لي : "سيحال الأمر إلى السيد المسؤول الأول... الذي سيحيله بدوره إلى "المسؤول الأول الذي سيتخذ القرار"... وخرجت تصطك ركبتي رعبا... أي مأزق وجدت فيه نفسي وكيف السبيل إلى الخلاص منه ولم تقترب يداي جرما أحاسب عليه؟؟؟... كنت لا أصدق ما وقع لي... أصبحت الدنيا ضبابا امامي... وقلت في نفسي لأذهب إلى المسؤول الأول... وأشرح له الأمر... وعندما أذن لي الحاجب بالدخول بعد طول انتظار، لم يجد لي يده وتركني واقفا وأنا الذي تعودت أن أستقبل بالأحضان... وهو الذي تعود مقابلة المتهمين والجرمين وما أنا الآن إلا واحد منهم... ولم يشفع لي مركزي ووظيفتي السامية في استقبال يليق بمقامي بل لم يحشم نفسه عناء الالتفات إلي وقال في برود شديد شبيه

بالاحتقار : "سيأخذ القانون مجراه... وستحال للبحث لدى المسؤول الثاني..." وشعرت أنني حشرة تزحف على سيقان محطمة... وأنه قادر على سحقني في أية لحظة.. فأني آلة رهيبة وقعت بين فكئها ؟ وأي مصيبة حلت بي ؟ وكيف السبيل إلى الخلاص من هذا المأزق وأنا الذي يعرف أن الموظف ينبغي أن يكون نقي السلوك نظيف اليد واللسان... في البحث عن الخلاص :

بدأ النوم يأتي أن يطرق الباب... وأخذت تغشى رأسي لحظات من الدوار ورجلاي ترفضان حمل هذا الجسد... وبدأت أبحث عما هم في مثل حالي عسى أن أجد لديهم صدى لمحتني... والتقيت أحدهم وهو عامل في محطة الوقود... يبدو أن أحدهم قد سرب إليه ورقة نقدية مزيفة... لم يتفطن إليها... وقد ناداه الباحث المحلي لأن أحدهم قد وشى به وأنجز له محضرا في الغرض بعد أن أستمعه ألوانا من الوعيد والتهديد حسب قوله... وعندما قابلته في مساء ذلك اليوم كان ساخطا لاعنا حظه العائر لأن وقع ضحية غش بدون أن يدري... وفي حديث قصير معه ذكر أن أشخاصا آخرين قد وقعت بين أيديهم أوراق نقدية مزيفة... وأن خضعوا للبحث والبعض الآخر أدخل السجن وذاق ألوانا من الضرب...

أما المسؤول بمركز البريد يومها فقد سمعت أنه نودي ليقدم شهادته في اليوم الموالي فأكد أن الأوراق النقدية التي قدمها لي كانت سليمة وقد مرت كلها على آلة فحص الأوراق النقدية... يبدو أن الرجل قد

خاف سوء العاقبة فنأى بنفسه عن تحمل المسؤولية... ليركني وحدي
أواجه مصري... أي أنا الذي دس الورقة المزيفة في المبلغ
الضخم... ولكن مادمت قادرا على فعل هذا فلم لم يكن المبلغ المعد
كبيرا؟

عندما قابلت تلميذي المحامي وأسمعته قصتي زاد الطين بلة بقوله : إن
القضية قد تحال إلى دائرة الاتهام وقد أجد نفسي أمامها... وأنا الذي لم
يقف في محكمة قط... ولا حول لي ولا قوة ولا قدرة على دفع هذا
البلاء النازل... ووعدني بمتابعة الموضوع وموافاتي بتطورات لاحقا...
وبدأت الأشهر تنقضي وأنا تائه في بحار من الخوف والرعب... فهذا
تلميذي الآخر وقد أصبح قاضيا وعندما طرحت عليه القضية وقلت له:
إني مظلوم... قال لي : كم من أشخاص مظلومين يقعون في
السجون... وأحسست أنني لا أساوي سوى حشرة... وقد أقضي
سنوات في السجن وستسحقني هذه القوة الرهيبة وستحيلني في لحظة
هباء مثورا... وقلت في نفسي : لو كنت حشرة لما وقعت في هذه
المصيدة... الحشرة سعيدة ولم تقع يوما ما في ورطة.. تعيش حياتها
وتمضي...

هل أحدث الناس عن مصيبيتي ؟ هل أفضح نفسي بهذه السهولة ؟
هل أقول لهم : "إن ورقة نقدية مزيفة قد تسربت إلى مبلغ ضخم
سحبته من مركز اليريد ؟ هل يصدقني منهم أحد ؟ بل ربما أرى في
عيونهم علامات الاحتقار... فأحس عندها بالذل والهوان..."

تقدم عون الأمن من باب المنزل ومد لي استدعاء من المسؤول الثاني لأتصل به بعد أربعة أيام ... لأول مرة يطرق عون الأمن بابي... أنا الآن صاحب شبهة... وبعض الناس مروا الآن ونظروا إلى الأمر باستغراب... وقلت في نفسي: كيف أصبر مدة أربعة أيام لا بد أن أذهب الآن... ولم أشعر أن السيارة تسرع أكثر من المطلوب وان الطريق رغم ذلك قد كانت طويلة... لقد كان هو المحكمة مليئا بالناس وهم في حركة دائبة لا تنتهي... وأمام باب المسؤول الثاني وجدت الأعوان يرافقهم مسحونون أو موقوفون فقدوا ما يربطهم بالآدمية... وقد جلسوا كالكلاب الهزيلة بجانب الطريق ينتظرون رغيف خبز... إنما لحظة يستوي فيه الإنسان بالحيوان بل يصبح أحقر من الحيوان... وقلت في نفسي وأنا أحاطبهم: لماذا تفعلون بأنفسكم هذا ؟

أتى المسؤول الثاني ودخل مكتبه وهو يتقد شرا بعد أن نظر بحدة إلى الجموع المحتشدة أمام مكتبه... عيناه صغيرتان وراء نظارات فضية ورأسه طويل منقطر يتمدد رغم أنف من يراه... وجمعت أطراف شجاعتي وتقدمت إليه وهو منكب على أوراقه وقدمت له الاستدعاء والتمست منه النظر في قضيتي لأني منشغل بإعداد دراسات تربوية قدمت له نسخا منها... ويبدو أنه أشفق على حالي فقبل الأمر ... وأمرني بالجلوس وقال لي : " أنت الآن أمام محكمة ويمكنك أن تعين محاميا " ... فأجبت أن لا ميرر لذلك لأني قادر على الدفاع عن نفسي... نظر في بطاقة الهوية وأملاها على كاتبه وأشار إلى التهمة التي

جعلتني أقف الآن أمامه...

يتعلق الأمر بتزييف ومسك وترويج عملة مزيفة بالبلاد... أملى هذه الجملة على كاتبه والتفت إلي طالبا التعليل... ومن أين لي بالتعليل بل هل أخرج حيا من هذا المكان وهذه التهمة تعجز عن حملها الجبال... أعدت باقتضاب ما ذكرته سابقا وهو يعيد كلامي بعبارة أخرى يريد من خلالها أن يبين مدى مهارته في صياغة الأسئلة والأجوبة... وعندما ضغط على زر دخل الحاجب يحمل ظرفا سلمه له... فأخرج منه ورقة نقدية زرقاء رفعها أمام وجهي قائلا: هل تعرفها؟ وكيف أعرفها هي بالذات وأنا الذي قابلت في حياتي آلاف الأوراق النقدية ولم يخطر ببالي أن أثبت من واحدة منها فكلها متشابهة ولعضها جديد يحدث قرعة بين الأصابع تود أن تبقى بمحبة للنظر والبعض الآخر قد باد وأصبح رثا وفي أحيان زيوت ودهون وإمضاءات وتعليقات عن لأصحابها أن يخلدوا أسماءهم عليها.. وربما وضعت أوراق أخرى في أماكن غريبة ثم أخرجت منها في لحظات الحاجة... أما أنا فقد أنكرت علاقتي بها بل وتبرأت منها ولعنتها في سري لأنها صارت الآن لعنة... ووددت أن أمحم عليها وأمزقها بأستاني إربا إربا... بل وأكلها أكلًا وأبتلعها ابتلاعاً... إنما مصدر للمصائب والبلايا فكم أرواح أزهقت بسببها وكم من عذاب سببته لمن طلبها... وعندما خرجت من أمامه كنت لا أرى الطريق بل وكان للناس ضبابا والدنيا غائمة والخوف يلف المكان...

كان فصل الصيف يمضي ببطء وكلما هتف إلى المحامي إلا وتوقعت شرا... ولكنه كان له شأن آخر يبحث عنه... وحاولت أن أنسى هذا الموضوع لكنه كان حاضرا يسد أفاق النفس ولا يترك لي متنفسا... والأسئلة تحاصرني: ترى هل ستحال القضية على دائرة الاتهام أم هل ستحفظ ؟ وعندما سأحال إلى دائرة الاتهام... ما هي المراحل التي سأمر بها وهل سأقف في قفص الاتهام ؟ وماذا سيقول الناس الحاضرون أو الذي سيسمعون بما ينسب إلي من هم... كانت أشباح الخواطر تملأ رأسي ولا أستطيع أن أنام... بل استيقظ أحيانا مذعورا بعد أن يلفني عرق بارد...

وعندما توقفت في محطة الوقود في بداية الخريف وبعد مضي فصل الصيف وقد داخل نفسي أثناء اطمئنان زائف... اقترب مني العامل المسكين بمحطة الوقود وأخبرني أنه تعرض إلى الاستحواب من جديد عند المسؤول الثاني كيف يحدث هذا هل ما دفناه أصبح حيا ؟ ... وتسمرت في مكاني من الرعب وقلت في نفسي : " قبل أن يعود العون من جديد ويطرق الباب ويقدم لي استدعاء للمثول أمام المسؤول الثاني لا بد أن أذهب إليه من تلقاء نفسي وليكن ما يكون ... " كان اليوم أحدا ولا يوجد مفر من عذاب الهواجس... ورحل النوم من جفوني وتركتني أثقل على فراش كالجمر... وفي صباح يوم الاثنين كلمت صديقي المربي وسألته مخرجا فأشار علي بمقابلة المسؤول الثاني عسى أن نجد عنده ردا شافيا... فصاحبني إلى مكتب هذا المسؤول الثاني وأنا

أختبئ وراءه حتى لا أنال الضربة الأولى ومن أين لي أن أحتمل ذلك.. بل قد أجد نفسي نائما في المستشفى بعد أن يغمى علي... وبعد طول انتظار سمح لنا المسؤول الثاني بالدخول إلى مكتبه مازال كما عهدته عيناه صغيرتان وراء نظارات فضية ورأسه طويل منقطر يتمدد إلى الأمام رغم أنف من يراه... كان مستغرقا في محادثة أحد زملائه الذي يبدو أنه حديث العهد بالمهنة في مواضيع بدت لي تافهة... ورغم ذلك فقد كان يتقبلها منه بإعجاب ولم يأهيه بوجودنا وكيف يمكن ذلك وهو في مركزه العالي ونحن حشرات وديدان ترحف على الأرض ربما يطؤها بقدمه الضخمة فيسحقها ؟ ... وكنت أتضائل في حضرته وأختبئ أحيانا وراء صديقي المربي حتى لا يراي... ثم غير مجرى حديثه بعد أن أحس بوجودنا فأخذ يلقي درسا في حسن السلوك والاستقامة... وقلت في نفسي: "لعله يقصدي بكلامه وقبل أن يتزل شفرة الإعدام على رقبي لابد أن يتلذذ بعذابي..." ولكن عندما سأله صديقي المربي عن مآل قضيتي... أجاب في لامبالاة "لقد حفظت"... شعرت عندها بأن طولي أصبح يلامس أطراف السماء وإني أطير فوق السحاب... وقلت في نفسي: "لن أفكر أبدا في شراء مسكن وسأسحب كل نقودي من البنك وسأشتري آلة للتثبيت في النقود التي أتسلمها من الآخرين وكلما سمعت صريها أمسكت بصاحبها لأنتقم منه".